

بأبي أنتَ وأمي

يــا

رســـول الله

بِأَبِي أَنتَ وأُمِّي يَا رَسُول اللَّه

* **السِّراجُ المنير والإنسانُ النَّجْمِيُّ ﷺ :**

✍ كما تَطلُعُ الشمسُ بأنوارها فتُفَجِّرُ يَنبوعَ الضوء ـ المُسَمَّىٰ بالنهار ـ، يُولَدُ محمدٌ رسول اللَّه ﷺ فيُوجَدُ في الإنسانية يُنبوعُ النور ـ وهو الإسلام ـ.

✍ وليس النهارُ إلاَّ يَقَظةَ الحياةِ تُحقِّقُ أعمالَها، وليس ما جاء به محمدٌ رسولُ اللَّه ﷺ إلاَّ يقظةَ النفس تُحقِّقُ أفضالها.

✍ والشمسُ خَلقها اللَّهُ حاملةً طابعًا خاصًّا، في عَمَلها للمادة تُحَوِّل به وتُغَيِّر، والنبيُّ محمدٌ ﷺ أرسله اللَّهُ حاملاً طابعًا في عَمَله تترقَّىٰ فيه النفسُ وتسمو.

✍ وليس النبيُّ محمدٌ ﷺ إنسانًا من العُظَماء يُقرأ تاريخُه بالفِكر معه المنطق، ومع المنطق الشكُّ، ولكنه إنسانٌ نَجْمِيٌّ يُقرأُ بمثلِ «التلسكوب» في الدِّقَّة معه العِلم، ومع العلم الإيمان.

✍ ومحمدٌ رسول اللَّه ﷺ مِثلُ النَّجم سراجٌ منير، وإشراقٌ علىٰ الإنسانية يُقوِّمها في فَلَكها الأخلاقي، ويجذبُها إلىٰ الكَمَال في نظامٍ هو بعينه صورةٌ لقانونِ الجاذبية في الكواكب.

✍ ونفسُ رسولِ اللَّه ﷺ أبلغُ الأنفس قاطبةً، لا يمكنُ أن تَعرِفَ الأرضُ أكملَ منها، ولو اجتمعت فضائلُ الحكماء والمتألِّهين، وجُعلت في نِصابٍ واحدٍ، ما بَلغت أن يجيء منها مِثلُ نفسه ﷺ.

✍ نفسٌ سامقةٌ عاليةٌ تُطِلُّ علىٰ الدنيا من عَلٍ لتصحيح الوضعِ المغلوطِ للبشريَّة، وكأنَّ الحقيقةَ الساميةَ في هذا النبي ﷺ تنادِي: أن قابِلوا علىٰ هذا

الأصل، وصحِّحوا ما اعترىٰ أنفسكم من غَلَطِ الحياة وتحريفِ الإنسانية.

✍ هو نَبعٌ في الأرض لمعاني النور بإزاءِ الشمس نَبْعِ النور في السماء.

✍ مِن أين تَدبَّرْتَ هذه النفسَ العظيمةَ، رأيتَها تَنبسطُ علىٰ الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلىٰ تنبسط وتضحَىٰ.

* قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]. وهو حاملُ النور إلىٰ البشرية.. نورِ الوحي.

* وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

◻ قال العلامة ابن جرير الطبري: «قد جاءكم يا أهلَ التوراة والإنجيل ﴿مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ يعني بالنور محمداً ﷺ الذي أنار اللَّهُ به الحقَّ، وأظهر به الإسلام، ومَحَق به الشرك، فهو نورٌ لمن استَنَار به، يُبيِّن الحقَّ، ومِن إنارته الحق تبيينُه لليهود كثيراً مما كانوا يُخفون من الكتاب.. قد جاءكم من اللَّه تعالىٰ النورُ الذي أنار لكم به معالِمَ الحق»[1].

نورٌ تُشرقُ به كينونةُ الإنسان عند الإيمان به وبما جاء به، فتَشِفُّ وتَخِفُّ وتَرِفُّ، ويُشرقُ به كلُّ شيء أمامه، فيَتَّضحُ ويتكشَّفُ ويستقيم.

ثُقلة الطين في كِيانه، وظُلمةُ التراب، وكثافةُ اللحم والدم، وعَرامةُ الشهوة والنزوة، كلُّ أولئك يُشرقُ ويُضيء ويتجلَّىٰ.. تَخِفُّ الثُّقْلة،

---

(١) «تفسير الطبري» (٨/ ٢٦٤) - طبع دار هجر.

وتُشرقُ الظلمة، وتَرقُّ الكثافة، وترِقُّ العرامة.. واللّبسُ والغَبَشُ في الرؤية، والتأرجُحُ، والتردُّدُ في الخُطوة، والحَيرةُ والشرودُ في الاتجاه والطريقِ البهيم الذي لا معالم فيه: كل أولئك يُشرقُ ويُضيء ويتجلَّىٰ.. يتضحُ الهَدَف، ويستقيمُ الطريقُ إليه، وتستقيمُ النفسُ علىٰ الطريق.

▫ ولِلَّه درُّ القائل في نبي اللَّه ﷺ:

وأبيضَ يُستسقَى الغمامُ بوَجهه ... ثُمالُ اليتامى عِصمةٌ للأرامِلِ

▫ ولِلَّه درُّ القائل:

كأن الثُّريَّا عُلِّقَتْ بجبينه ... وفي جِيْدِه الشِّعْرَى وفي وجهه القَمَرُ

عليه جَلالُ المَجْدِ لوْ أنَّ وَجْهَهُ ... أضَاءَ بليلٍ هلَّلَ البَدْوُ والحَضَرُ

▫ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لَمَّا كانَ اليومُ الذي دخَل فيه رسول اللَّه ﷺ المدينة، أضاءَ منها كُلُّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيء، وما نَفَضْنَا عن رسول اللَّه ﷺ الأَيْدِي - وإِنَّا لَفِي دفْنِه - حتىٰ أنكَرْنَا قُلُوبَنا»[1].

✍ وهو حامل النور - القرآن - إلىٰ البشرية:

* قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وأعظمُ مِنَّةٍ وتكريمٍ يَمُنُّ اللَّهُ به ويُورِدُه في كتابه الكريم هذا المثل:

---

(١) **حديث صحيح**: روه أحمد، والترمذي وقال حسن صحيح، وكذا رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

والضمير في «نوره» يعود على اللَّه سبحانه.

☐ قال أُبَيُّ بنُ كعب رضي الله عنه: «مَثَلُ نورِه في قلب المسلم».

☐ وقال ابن القيم: «والمعنى: مَثَل نورِ اللَّه سبحانه وتعالى في قلب عبده.. وأعظمُ عبادِه نصيبًا من هذا النور رسولُه صلى الله عليه وسلم».

والمؤمنُ قلبُه مُضِيءٌ يكادُ أن يُضيءَ بنفسه، يكادُ يعرفُ الحقَّ بفطرته وعَقْله، ولكن لا مادَّةَ له من نفسه، فجاءت مادةُ الوحْي فباشرت قلبه، وخالطت بشاشَتَه، فازداد نوراً بالوحي على نورِه الذي فَطَرَه اللَّه عليه، فاجتمع له نورُ الوحي إلى نورِ الفطرة، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

✍ فما ظنك بنورِ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ؟!.

انظر إلى هذا التشبيه العجيب الذي تضمَّنته الآيةُ، فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمامِ نِعمته على عَبدِه المؤمن - وأكملُ عبادِه رسولُه صلى الله عليه وسلم بما أناله من نوره - ما تَقَرُّ به عيونُ أهله، وتبتهجُ به قلوبُهم.

فتأمَّلْ صفةَ «المشكاة»، وهي كُوَّةٌ تَنفُذُ لتكونَ أجمعَ للضوء، قد وُضع فيها مِصباحٌ، وذلك المصباحُ داخلَ زجاجةٍ تُشبهُ الكوكبَ الدُّرِّيَّ في صَفائها وحُسنها، ومادتُه من أصفى الأدهانِ وأتمِّها وَقوداً، فمن شدةِ إضاءةِ زيتها وصفائِه يكادُ يُضيءُ من غير أن تمسَّه نار.

● فالمشكاةُ صَدْرُ المؤمن، والزجاجةُ قلبُه، وبصفائه تتجلّىٰ فيه صُورُ الحقائق والعلوم علىٰ ما هي عليه، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن للَّه تعالى آنيةً من أهل الأرض، وآنيةُ ربّكم قلوبُ عبادهِ الصالحين، وأحبُّها إليه أَلْيَنُها وأرقُّها**»(١).

والشجرةُ المباركة: هي شجرةُ الوحي، وهي مادةُ المصباح التي يتَّقد منها.

فماذا ظنُّك بحظِّ رسولِ اللَّه ﷺ مِن هذا المَثَل؟!.

● عن عبداللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهَ في ظُلمة، ثم ألقى عليهم من نُوره، فمن أصابه من ذلك النورِ اهتدى، ومن أخطأه ضَلَّ، فلذلك أقول: جَفَّ القلمُ على عِلم اللَّه**»(٢).

فيا لها من أنوارٍ كانت لرسول اللَّه ﷺ! فإنَّ نورَ الإيمان يملأُ قلبَه، ومُدخَلُه نور، ومُخْرَجُه نور، وعِلمُه نور، ومِشيتُه في الناس نور، وكلامه نور، ومصيرُه إلىٰ نور، وللمؤمن نصيبٌ من هذا.

---

(١) **إسناده قوي**: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» عن أبي عنبة، وقال الألباني: «رجاله كلهم ثقات أثبات غير «بقية»، وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء، وهو هنا قد صَرَّح بالتحديث».. وقواه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٦٩١)، وحسَّنه في «صحيح الجامع» برقم (٣١٦٣).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «المسند» مطولاً (١٠/ ١٢٧)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر. وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٩٣ ـ ١٩٤): «رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات»، ورواه الترمذي في «سننه» (٥/ ٢٦) في الإيمان ـ باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، وقال: حديث حسن، وأخرجه الحاكم مطولاً وصححه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣/ ٦٤) رقم (١٠٧٦).

وتتزايدُ مادةُ النور حتىٰ تظهرَ علىٰ وجوهِ المؤمنين وجوارحِهم وأبدانِهم، بل وثيابهم، ودُورِهم، يُبصِرُه مَن هو من جِنسهم، فإذا كان يومُ القيامة بَرَز ذلك النورُ يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم، منهم مَن نورُه كالشمس، وآخر كالقمر، وآخر كالنجوم.

◘ قال ابن القيم: «ولما كان «النـورُ» من أسمائه الحُسنىٰ وصفاته، كان دينُه نوراً ورسولُه نوراً، وكلامُه نـوراً، ودارُه نـوراً يتلألأ، والنورُ يتـوقَّدُ في قلوب عبـاده المؤمنين، ويجـري علىٰ ألسـنتهم، ويظهر في وجوههم».

◘ قال ابن تيمية: «إن اللَّه ضَرَب مَثَلَ نورِه في قلوبِ المؤمنين بالنور الذي في المصباح وهو في نفسه نورٌ، وهو مُنَوِّرٌ لغيره، فإذا كان نورٌ في القلوب هو «نورٌ»، وهو «منوِّر»، فهو في نفسه أحقُّ بذلك، وقد عُلِم أن كلَّ ما هو نورٌ فهو منوِّر»[1].

* **وقفة:**

حين يَفيضُ النورُ الهادئُ الوضيءُ، فيَغمُرُ الكونَ كلَّه، ويَفيضُ علىٰ المشاعر والجوارح، وينسكبُ في الحنايا والجوانح، وحتىٰ يَسْبَحَ الكونُ كلُّه في فيضِ النور الباهر، وحتىٰ تُعانقَه وتَرشُفَه العيونُ والبصائر، حين تنزاحُ الحُجُب، وتَشفُّ القلوب، وترفُّ الأرواح، ويَسْبَحُ كلُّ شيءٍ في الفيض الغامر، ويتطهَّرُ كلُّ شيءٍ في بحرِ النور، ويتجرَّدُ كلُّ شيءٍ من كثافته وثُقْله، فإذا هو انطلاقٌ ورَفرفة، ولقاءٌ ومعرفة، وامتزاجٌ وأُلفة، وفَرَحٌ

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٢٣٦).

وحُبور، وإذا الكونُ كلُّه بما فيه ومَن فيه نورٌ طَليقٌ من القيود والحدود، تتَّصلُ فيه السماواتُ بالأرضُ، والأحياءُ بالجماد، والبعيدُ بالقريب، وتلتقي فيه الشِّعابُ والدُّرُوب، والطوايا والظواهر والحواس والقلوب.

فَيضٌ غامر من النور.. وأُفُقٌ وضيءٌ يدركُه القلبُ كلما شَفَّ ورَفَّ، ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

مَثَلٌ يُقرِّبُ للإدراك المحدود صورةَ غيرِ المحدود، مَثَلٌ يُقرِّبُ للإدراكِ طبيعةَ النورِ حينَ يَعجِزُ عن تتبُّعِ مَدَاه وآفاقِهِ المترامية وراءَ الإدراكِ البشريِّ الحسير.

وإنَّ مَن حُجب عن معرفةِ ربِّه ونورِه يُحجَبُ عن معرفة رسوله الذي أرسله اللَّه سراجًا منيرًا.. وضرب مثلاً لنوره بالنور في قلبِ رسوله ﷺ..

وكيف يُبْلُغُ في دنياه غايَتَه ... مَن تستوِي عنده الظُّلْمَاءُ والنُّورُ!

● انظر إلىٰ دعاءِ مَن أرسله اللَّه سِراجًا منيرًا ـ وقد استجاب اللَّه لدعائه ـ: «اللَّهم اجعَـلْ في قلبي نورًا، وفي بَصَري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، ومن أمامي نـورًا، ومِن خَلفي نـورًا، واجعلْ لي في نفسي نورًا، وأعظِمْ لي نورًا»[1].

● «اللَّهم اجعلْ في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، واجعلْ في سمعي نورًا، واجعلْ في بَصَري نورًا، واجعلْ مِن خَلْفي نورًا، ومِن أمامي نورًا،

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي عن ابن عباس.

واجعلْ من فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، اللَّهم أعطِني نوراً»[(١)] .

لا يفقهُ عِظَمَ هذا المَثَلِ وقَدْرَ هذا الدعاءِ النبويِّ الجميل إلاَّ مَن رَزَقه اللَّهُ نوراً وحياةً في قلبه، ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

❑ ولِلَّه درُّ القائل عن رسول اللَّه ﷺ:

قَمَــرٌ تفــرَّدَ بالكمال كمـالُه ... وحَــوَى المحاسنَ حُسْنُه وجمـالُهُ

وتنــاول الكَـرَمَ العريضَ نَـوَالُه ... وَحَوَى المفـاخِـرَ فخـرُه المتقـدِّمُ

فبربِّــه صَــلُّوا عليه وســلِّمُوا

واللَّه ما ذَرَأَ الإلـــهُ ولاَ بَــــرَاَ ... بَشَرًا ولا مَلَكًا كأحـمدَ في الوَرَى

فعليه صلَّى اللَّهُ ما قلــمٌ جَـرَى ... وجَلاَ الدياجـي نــورُه المُتَبَسِّمُ

فَبِربِّــه صَلواُّ عليه وســلِّمُـوا

❑ والقائل:

قمرٌ تشعشعَ مِن ذؤابــةِ هاشــمٍ ... في الأرض نورُ هـداية وصـوابِ

العاقبُ الماحي الضَّلالةَ بالهــدى ... ومُـدَمِّــرُ الأزلامِ والأنـصــابِ

❑ ولِلَّه درُّ القائل فيه:

فهو الذي تـمَّ معناهُ وصورتُـــه ... ثم اصطفاه خليـلاً بارئُ النَّسـمِ

لكأنما خَـرَجت هذه النَفْسُ مِن صِيغةٍ كصيغـةِ الـدُّرة في محـارتـها،

---

(١) رواه مسلم وأبو داود ـ واللفظ له ـ عن ابن عباس.

أو تركيبٍ كتركيب الماسِ في مَنْجَمِه، أوْ صفةٍ كصفةِ الذهب في عِرْقه.

* سبحان من رفع قَدْرَ رسولِ اللَّه ﷺ فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]:

□ «هو رحمةٌ للإنسان، إذ علَّمه الرحمن، وسكَب في قلبه نورَ الإيمان، ودلَّه على طريق الجِنان.

ـ هو رحمةٌ للشيخ الكبير، إذ سهَّل له العبادة، وأرشده لحُسنِ الخاتمة، وأيقظه لتدارُكِ العمرِ واغتنامِ بقية الأيام.

ـ هو رحمةٌ للشاب، إذ هداه إلى أجملِ أعمالِ الفُتُوَّة وأكملِ خِصال الصِّبا، فوجَّه طاقتَه لأنبلِ السجايا وأجلِّ الأخلاق.

ـ وهو رحمةٌ للطفل، إذ سقاه مع لَبَنِ أُمِّه دِينَ الفطرة، وأسمعه ساعةَ المَولِدِ أذانَ التوحيد، وألبَسَه في عهدِ الطفولة حُلَّةَ الإيمان.

ـ وهو رحمةٌ للمرأة، إذْ أنصفَها في عالَم الظُّلْم، وحَفِظ حقَّها في دنيا الجَوْر، وصان جانبَها في مهرجانِ الحياة، وحَفِظ لها عفافَها وشرَفَها ومُستقبلها، فعاش أبًا للمرأة وزوجًا وأخًا ومُربِّيًا.

ـ وهو رحمةٌ للوُلاة والحُكَّام، إذْ وضع لهم ميزانَ العدالة، وحَذَّرهم من مَتَالِفِ الجَور والتعسُّف، وحَدَّ لهم حدودَ التبجيل والاحترام والطاعة في طاعةِ اللَّه ورسوله.

ـ وهو رحمةٌ للرعِيَّة، إذْ وقف مدافعًا عن حقوقها، مُحرِّمًا الحيفَ، ناهيًا عن السَّلْب والنَّهْب والسَّفك والابتزاز والاضطهاد والاستبداد»[1].

(١) «محمد ﷺ كأنك تراه» لعائض القرني (ص١٠٦ ـ ١٠٧). ـ طبع دار ابن حزم.

* وزكَّى الله خُلُقَه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾:

▫ «عظيمُ الأخلاق، كريمُ السجايا، مُهَذَّب الطِّباع، نقيُّ الفِطرَة، جَمُّ الحياء، حَيُّ العاطفة، جميلُ السِّيرة، طاهرُ السريرة، أُلبس إهابَ الهَيبة، وتُوِّج تاجَ السِّيادة، وضُمِّخ بأذكىٰ خَلوقٍ أذكىٰ الأخلاق، وأُحِلَّ دارَ المُدَاراة، وأُعطِيَ لقطعِ مفازة الدنيا جَوادَ الجُودِ، فهو هلالُ شهرِ الكمال، وأميرُ جيشَ الجود، ورُوحُ جُثمانِ الكون، وحشاشةُ نفسِ المملكة»[1].

▫ «أُجْلِس علىٰ صفحةِ الصَّفح، ولُقِمَ لُقَمَ لقمان الحكيم، ووُضِعت له أكوابُ التواضع، وأُديرت عليه كؤوسُ الكَيْس، مُتضمِّنةً حلاوةَ الحِلم، خِتامُها مِسْكُ النُّسك، نُووِلَ قلمَ العِزِّ، فوقَّع علىٰ صحائفِ الكَدِّ، «كلُّ عملٍ ليس عليه أمرُنا فهو رَدّ».

كان يعودُ المريض، ويُجيب دعوةَ المملوك، ويجلسُ علىٰ الأرض، ويَلبَسُ الخشِن، ويأكلُ البشع، ويَبيتُ اللياليَ طاويًا، يتقلبُ في قفرِ الفقر، ولسانُ الحال يناديه: يا محمد، نحن نَضِنُّ بك عن الدنيا، لا بها عنك»[2].

أُشرِبت نفسُه عِلمَ اليقين وعَينَه وحقَّه.

* ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾:

▫ «إنك قِمَّةُ الفضائل، ومَنبعُ الجُود، ومَطْلَعُ الخير، وغايةُ الإحسان.

يَظلِمونك فتَصبِر، يُؤذونك فتَغفر، يَشتمونك فتحلُم، يَسُبُّونك فتعفو، يجفونك فتصفح.

(١) «مقامات ابن الجوزي» لابن الجوزي (ص٤٨) ـ دار فوزي للطباعة.

(٢) «المدهش» لابن الجوزي (ص١١٧ ـ ١١٨) ـ دار مروان للطباعة.

يُحبُّك المَلِكُ والمملوكِ، والصغيرُ والكبير، والرجلُ والمرأة، والغَنِيُّ والفقير، والقَريبُ والبعيد؛ لأنك مَلَكْتَ القلوب بعطفك، وأسَرْتَ الأرواح بفضلك، وطَوَّقتَ الأعناقَ بكرمك.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.. هذَّبك الوحيُ، وعَلَّمك جبريل، وهداك ربُّك، وصاحَبَتْك العناية، ورافقتك الرعاية، وحالفك التوفيق.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.. البسمةُ علىٰ مُحَيَّاك، البِشْرُ علىٰ طَلْعتك، النورُ علىٰ جَبينك، الحبُّ في قلبك، الجُودُ في يَدِك، البركةُ فيك، الفوزُ معك..

مَن زار بابكَ لم تبــرَحْ جوارحُهُ ... تروي أحـاديثَ ما أَوْليتَ مِن مِنَنِ
فالعينُ عَن قُــرَّةٍ والكَفُّ عَن صِلَةٍ ... والقلبُ عن جابرٍ والسمعُ عن حسنِ

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.. لا تكذبُ ولو أن السيفَ علىٰ رأسك، ولا تخونُ ولو حُزْتَ الدنيا، ولا تَغْدِر ولوْ أُعطِيتَ المُلْك؛ لأنك نبيٌّ معصوم، وإمامٌ قُدْوة، وأُسوةٌ حسنة.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.. صادقٌ ولو قابَلَتْك المنايا، شُجاعٌ ولو قاتلتَ الأُسُود، وجَوَادٌ ولو سُئلت كلَّ ما تملِك، فأنتَ المِثالُ الراقي والرمزُ السامي.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.. سَبَقْتَ العالَمَ ديانةً وأمانةً وصيانةً ورزانةً، وتفوَّقْتَ علىٰ الكُلِّ عِلمًا وحِلْمًا وكرمًا ونبلاً وشجاعةً وتضحيةً»[1].

(١) «محمد كأنك تراه» (ص٦٥ ـ ٦٧).

✍ إذا ذُكِرتَ ذُكِرَتْ معك الفضيلةُ في أجمل صورها، وذُكِر معك الطُّهْرُ في أرقى مشاهِدِه، وذُكِر معك العدلُ في أسمى معانيه.

✍ كُتِب اسمُك بحروفٍ من نور في قلوبِ الموحِّدين. . فلو شَقَقْتَ كُلَّ قلبٍ لرأيتَك محفوراً في النِّياط، مكتوبًا في السُّوَيداء، مرسومًا في العُروق. .

والله لو شُقَّ قلبي في الهوَى قطعًا وأبصر اللَّحْظُ رسمًا في سُـويْداهُ
لكنتَ أنت الذي في لوحِـه كُتِبَتْ ذِكْراه أو رُسِـمَتْ بالحُبِّ سِـيماهُ

✍ أنت صاحبُ الغُرَّة والتبجيل، المذكورُ في التوراةِ والإنجيل، المؤيَّد بجبريل. . بَشَّرَت بك الرُّسُل، وأخبَرَتْ بك الكُتُبُ، وحَفَلت باسمك التواريخُ، وتشَرَّفت بك النوادي، وعَمَّ ذِكرُك الحواضرَ والبوادي، وتضوَّعت بذِكرك المجامع، وصَدَحتْ بذكراك المنائر، ولَجْلَجَتْ بحديثك المنابر.

✍ عُصمتَ من الضلالة والغواية، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]، وحُفِظت من الهوىٰ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣].

✍ كلامُك شريعة، ولفظُك دِين، وسُنَّتك وَحْيٌ، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

✍ سجاياك طاهرة، وطَبيعتُك فاضلة، وخِلالُك جميلة، وخِصالُك نبيلة، ومواقفُك جليلة، ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

✍ ليِّن الجانب، سَهْلُ الخليقة، يسيرُ الطبع، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

✍ ظاهرُ العِناية، ملحوظٌ بعينِ الرعاية، منصورُ الراية، مُوَفَّقٌ محظوظ، مُظفَّرٌ مفتوحٌ عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

✍ أصلح اللَّهُ لك قلبَك، وأنار لك دَرْبَك، وغَفَر لك ذَنْبَك ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

❑ لا يُقال لغيرك هذا الشِّعر:

الشمسُ من حُسَّاده والنصرُ من … قرنائه والحمدُ من أسمائه
أين الثلاثةُ من ثلاث خلاله … من حُسنه وإبائه ومَضائه
مَضتِ الدُّهورُ وما أَتَيْنَ بمثله … ولقد أتى فعَجَزْنَ عن نُظرائه

* عظيمٌ كلَّ العظمة:

✍ رجلُ السماء في الأرض، وهِبَةُ السماء للأرض، كان ﷺ - وهو في حدودِ نفسه وضِيق مكانه - يتسعُ في الزمن من حيثُ لا يَرىٰ ذلك أحدٌ ولا يعلمه، وكأنما كانت شمسُ اليوم الذي سينتصرُ فيه - قبل أن يُشرقَ علىٰ الدنيا - مشرقةً في قلبه.

✍ أراد اللَّهُ تعالىٰ أن يبدأ هذا الجليلُ العظيم من أَسْمىٰ خِلالِ الجلال والعظمةِ، ليكونَ أولُ أمره شهادةً بكماله، فكانت الحسنةُ فيه بشهادةِ السيئة من قومه، فحِلْمه بشهادة رُعونتهم، وأَناتُه وحِلْمه بدليل طيشهم، وحِكمته ببرهانِ سفاهتهم.

✍ نَثَروا الترابَ علىٰ رأسه.. إنَّ هذا الترابَ هو شذوذُ الحياةِ الأرضيَّةِ الدنيئةِ في مقابلة إنسانها المتفرِّد، هذه القبضةُ من التراب قبضةٌ سفيهة تحاول رَدَّ الممالكِ الإسلاميةِ أن تنشأَ نشأَتَها وتعملَ في التاريخ عملها.

✍ وكان قِطفُ العنب من «عَدَّاس» في رحلة الطائف رمزًا لهذا العنقود الإسلاميِّ العظيمِ الذي امتلأ حَبًّا، كُلُّ حَبَّةٍ فيه مملكة.

◻ بأبي وأمي رسولُ اللَّه ﷺ .. والذي نفسي بيده هو أوْلى الناس بقول القائل:

زَمَانُكَ بُستانٌ وَعصرُكَ أخضَرُ وذكراكَ عصفورٌ منَ القَلْبِ يَنْقُرُ
دَخَلْتَ على تاريخنَا ذاتَ لَيْلَة فَرَائحَةُ التَّاريخِ مِسْكٌ وعَنْبَرُ
وَكُنْتَ فكانَتْ في الحقول سَنَابِلٌ وكَانَتْ عَصَافيرٌ وكَانَ صنُوبَرُ
لَمَسْتَ أَمَانينَا فصَارَتْ جَدَاوِلاً وَأَمْطَرْتَنا حُبـًّا ولازلْتَ تُمْطِـرُ
تُعَاوِدُنِي ذكْرَاكَ في كُلِّ لَحْظَة[1] وَيُورِقُ فكْرِي حينَ فيك أُفَكِّرُ
وتَأْبَى جِرَاحي أنْ تَضُمَّ شفَاهَهَا كَأَنَّ جِرَاحَ الحُبِّ لا تَتَخَثَّرُ
أَتَسْأَلُ عن أَعْمارِنا أَنْتَ عُمْرُنا وأنت لنا التاريخُ أَنْتَ المُطَهَّرُ[2]

◻ ونبضُ فؤادنا ووَجيبُ قلوبنا قاصرٌ على حُبِّ رسول اللَّه ﷺ بعد حب اللَّه -عز وجل-:

قصَرْتُ عَلَيْكَ العُمْرَ وهو قَصيرُ وغَالَبتُ فيك الشَّوْقَ هو قَديرُ
وأَنْشَأْتُ في صدري لحُسْنكَ دَوْلَةً لها الحُبُّ جُنْدٌ والولاءُ سَفيرُ
فؤادي لها عَرْشٌ وأنتَ مَليكُهُ ودُونَك من تلك الضُّلُوعِ سُتُورُ
وما انْتَقَضَتْ يومًا عليكَ جَوَانحي وَلاَ حَلَّ في قلبي سواكَ أميرُ
حبيبٌ[3] إذا غَنَّى اليَرَاعُ بمَدحه سَرَتْ بالمَعَالي هِزَّةٌ وسُرُورُ
فَدِينُكَ مَحْرُوسٌ وربُّكَ حَافظٌ وأنت على مُلْكِ القلوبِ أميرُ

* * *

(١) في الأصل: تعاودني ذكراك كل عشيَّة.
(٢) في الأصل: وأنت لنا الآمالُ أنت المُحَرِّرُ.
(٣) في الأصل: مَليكٌ.

* ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ :

لَمسةٌ من حَنان ، ونسمةٌ من رحمة ، وطائفٌ من وُدٍّ ، ويدٌ حانيةٌ تمسحُ على الآلام والمواجع ، وتَنَسَّمُ بالرَّوْح والرضى والأمل ، وتسكبُ البَرْدَ والطمأنينةَ واليقينَ . . كلُّها خالصةٌ للنبي ﷺ ، كلُّها نجاءٌ له من ربِّه ، وتَسْرِيةٌ وتَسليةٌ وترويحٌ وتطمين ، كلُّها أنسامٌ من الرحمة ، وأنداءٌ من الوُدِّ ، وألطافٌ من القربىٰ ، هَدْهَدةٌ للرُّوحِ والخاطِرِ والقلب .

يُقسِمُ اللَّهُ سبحانه وتعالىٰ بهذَيْن الآنَيْنِ الرائقَيْنِ الموحِيَيْن . . الضحىٰ الرائق الصافي ، والليلِ الساجي الذي يَرقُّ ويسكنُ ويصفو ، وتغشاه سحَابةٌ رقيقةٌ من الشجَىٰ الشفيف ، والتأمُّلِ الوديع . . أَشَفُّ آنَيْنِ تسري فيهما التأملات ، وتتصل الرُّوحُ بالوجود ، وخالقِ الوجود ، وتُحِسُّ بعبادةِ الكون كلِّه لمبدِعِه ، وتوجُّهُه لبارئه بالتسبيح والفرحِ والصفاءِ ، ويعيشُ القلبُ في أُنسٍ من هذا الوجود الجميل الحيِّ .

ما تَرَكَكَ ربُّك مِن قبلُ أبداً ، وما قَلاك من قبلُ قطُّ ، وما أخلاك مِن رحمته ورعايته وإيوائه . . ما انقطع عنك بِرُّه وما ينقطع أبداً . . ألاَ تجدُ مِصداقَ هذا في حياتك؟ ألا تُحِسُّ مسَّ هذا في قلبك؟ ألا ترىٰ أثَرَ هذا في قلبك؟ .

رحمته عليك سابغة ، ورضاه يغمُرك . . هو رَاعيكَ وكافلُك ، ما غاضَ مَعينُ فضلهِ وفيضُ بِرِّه .

* ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ :

إن لك عنده في الآخرة من الحُسْنىٰ خيراً مما يُعطيك منها في الدنيا .

* ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾:

❑ قال بعض العلماء: «يعطيه في الدنيا مِن إتمام الدين وإعلاء كلمةِ اللَّه، والنصر على الأعداء»(١) .

❑ «إنه ليدَّخرُ لك ما يُرضيك من التوفيق في دعوتك، وإزاحةِ العقبات من طريقك، وغلبةِ منهجك، وظهور حقك»(٢) .

وليس بعد الرِّضىٰ مطلب.. لَمَّا بيَّن أن الآخرةَ خير له ﷺ من الأُولىٰ، ولكنه لم يُبيِّن أن ذلك التفاوتَ إلىٰ أيِّ حدٍّ يكون، فبيَّن بهذه الآية مقدارَ ذلك التفاوت، وهو أن ينتهي إلىٰ غايةٍ ما يتمناه الرسولُ ويرتضيه ﷺ.

والجمهورُ أنه في الآخرة، وقد فَصَّله في بعض المواضع، وأعظمها ما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وهو المقامُ الذي يَغبطُه عليه الأوَّلون والآخِرون كما في حديث الشفاعة العظمىٰ، حين يتخلَّىٰ كلُّ نبيٍّ ويقول: «نفسي نفسي»، حتىٰ يَصِلوا إلىٰ النبي ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، ومنها الحوضُ المورود، والكوثر، ومنها الوسيلة، وهي منزلةٌ رفيعةٌ عاليةٌ لا تنبغي إلاَّ لعبدٍ واحد، وإذا كانت لعبدٍ واحدٍ فمن يستقدمُ عليها، وإذا رجا ربَّه أن تكون له، طَلَب من الأمة طَلَبَها له، فهو مما يؤكِّدُ أنها له، وإلاَّ لَمَا طَلَبها ولا ترجَّاها، ولا أمر بطلبها له، وهو بلا شك أحقُّ بها من جميع الخلق، إذ الخَلقُ أفضلُهم الرسل، وهو ﷺ مقدَّمٌ عليهم في الدنيا(٣) .

---

(١) «تتمة أضواء البيان» للشيخ عطية محمد سالم (ص٢٨٠) ـ مكتبة ابن تيمية.

(٢) «الظلال» (٦/ ٣٩٢٧).

(٣) انظر «تتمة أضواء البيان» (ص٢٨٠ ـ ٢٨١).

☐ عن علي بن عبداللّه بن عباس، عن أبيه ﷺ قال: «عُرِض علىٰ رسول اللّه ﷺ ما هو مفتوحٌ علىٰ أمته كَنزًا كَنزًا، فسُرَّ بذلك، فأنزل اللّه: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾، فأعطاه في الجنة ألفَ ألفِ قصرٍ، في كلِّ قصرٍ ما ينبغي له من الأزواج والخدم».

☐ قال الحافظُ ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٥٢٢): «رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريقه، وهذا إسناد صحيح إلىٰ ابن عباس، ومثل هذا لا يُقال إلا عن توقيف»[١] .

☐ قال الفخر الرازي: «أمَّا لو حَمَلنا هذا الوعدَ علىٰ أحوالِ الدنيا، فهو إشارةٌ إلىٰ ما أعطاه اللّه تعالىٰ من الظفر بأعدائه يوم بدر، ويومَ فتح مكة، ودخولِ الناس في الدين أفواجًا، والغَلَبَةِ علىٰ قُريظة والنضير

(١) قال الشيخ مقبل الوادعي في «الصحيح المسند من أسباب النزول» (ص١٧٤): «الحديث رواه ابن جرير ـ كما قال الحافظ ابن كثير ـ (٣٠/ ٢٣٢) من طريقين عن الأوزاعي في أحدهما «عمرو بن هاشم البيروتي» الراوي عن الأوزاعي، وهو ضعيف، وفي الأخرىٰ «روّاد بن الجراح» مختلف فيه، وهو مختلط، فأظن من وَثَّقه لصدقه وديانته، ومن جرحه فلأنه اختلط.

وأخرجه الحاكم وصححه (٢/ ٥٢٦) وتعقَّبه الذهبي قائلاً: «تفرَّد به عصام بن روّاد عن أبيه وقد ضُعِّف»، وأخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، قال الهيثمي: «ورواية «الأوسط» قال رسول اللّه ﷺ: «**عُرِض عليَّ ما هو مفتوح لأمتي من بعدي، فسرَّني، فأنزل اللّه ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾**»، فذكر نحوه، وفيه «معاوية بن أبي العباس» ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات وإسناد «الكبير» حسن»، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٢) عن الطبراني، وفيه عمرو بن هاشم البيروتي، ثم قال: هذا حديث غريب من حديث علي بن عبداللّه بن العباس لم يروه عنه إلا إسماعيل، ورواه سفيان الثوري عن الأوزاعي، عن إسماعيل مثله.

وإجلائهم، وبَثِّ عساكرِه وسراياه في بلاد العرب، وما فُتح علىٰ خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وهَدَم بأيديهم من ممالكِ الجبابرة، وأنهبهم مِن كنوزِ الأكاسرة، وما قذف في أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيُّبِ الإسلام وفشوِّ الدعوة.

واعلم أن الأوْلىٰ حمل الآية علىٰ خيرات الدنيا والآخرة»[1] اهـ.

❑ «فهذه آية جامعة لوجود الكرامة، وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين والزيادة»[2].

* ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾:

مناجاةٌ حُلوة، وحديثٌ وَدود.

❑ ألم نشرحْ صَدْرَك لهذه الدعـوة؟ ونيسِّـر لك أمرها؟ ونجعلْها حَبيبةً لقلبك، ونَشْرَعْ لك طريقَها؟ ونُنِرْ لك الطريق حتىٰ ترىٰ نهايته السعيدة؟!.

فَتِّش في صدرك، ألا تجدُ فيه الرَّوْحَ والانشراح والإشراقَ والنور؟ واسْتَعِدْ في حَسِّك مَذاقَ هذا العطاء، ألاَ تجدُ معه المتاعَ مع كلِّ مشقةٍ، والراحةَ مع كلِّ تعب، واليُسْرَ مع كلِّ عسر، والرضىٰ مع كلِّ حرمان؟.

أَمَا شرحنا لك صدرَك فصار وسيعًا فسيحًا لا ضِيقَ فيه، ولا حَرَجَ، ولا هَمَّ، ولا غمَّ، ولا حَزَن، بل ملأناه لكِ نوراً وسروراً وحبوراً؟!.

أما شرحنا لك صَدْرَك وملأناه حِكمةً ورحمةً وإيمانًا وبِرًّا وإحسانًا؟.

❑ شرحنا لك صدرك، فوَسِعْتَ أخلاقَ الناس، وعَفْوتَ عن

(١) التفسير الكبير «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي.

(٢) «الشفا في التعريف بحقوق المصطفىٰ» للقاضي عياض.

تقصيرهم، وصَفَحْتَ عن أخطائهم، وسَترتَ عيوبَهم، وحَلُمْتَ علىٰ سَفيههم، وأعرضتَ عن جاهلهم، ورَحِمتَ ضعيفَهم.

❏ شرحنا لك صدرك، فكنُتَ كالغيث جُودًا، وكالبحر كَرَمًا، وكالنسيم لُطفًا، تُعطي السائل، وتَمنحُ الراغب، وتُكْرِمُ القاصد، وتجودُ علىٰ المؤمِّل.

❏ شرحنا لك صدرك، فصار بردًا وسلامًا يُطفئُ الكلمةَ الجافية، ويُبَرِّدُ العبارةَ الجارحة، فإذا العفوُ والحلمُ والصَّفحُ والغفران.

❏ شَرَحْنا لك صَدْرَك، فصبرتَ علىٰ جفاء الأعراب، ونَيْلِ السفهاء، وعَجْرفةِ الجبابرة، وتطاوُلِ التافهين، وإعراضِ المتكبِّرين، ومَقْتِ الحَسَدَةِ، وسِهامِ الشامتين، وتجهُّم القرابة.

❏ شرحنا لك صدرك، فكنتَ بسَّامًا في الأزمات، ضحَّاكًا في المُلمَّات، مسرورًا وأنت في عَين العاصفة، مطمئنًا وأنت في جَفنِ الرَّدَىٰ، تُداهمُك المصَائبُ وأنت ساكن، وتلتفُّ بك الحوادثُ وأنت ثابت؛ لأنك مشروحُ الصدر، عامرُ الفؤاد، حيُّ النفس.

❏ شرحنا لك صدرَك، فلم تكن فظًّا قاسيًا غليظًا جافيًا، بل كنتَ رحمةً وسلامًا وبرًّا وحنانًا ولُطْفًا، فالحِلمُ يُطلبُ منك، والجُود يُتَعلَّمُ من سيرتك، والعفو يُؤخذ من ديوانك.

* ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾:

❏ في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «شرح اللَّه صدرَه للإسلام».

❏ وعن ابن كثير: «نوَّرْناه وجَعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا، كقوله:

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]».

والذي يشهدُ له القرآن أنَّ الشَّرْح هو الانشراحُ والارتياحُ، وهذه حالةُ نتيجةِ استقرارِ الإيمانِ والمعرفةِ والنورِ والحكمة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، بيان لشرح الصدر للإسلام.

كما أنَّ ضيقَ الصدر دليلٌ علىٰ الضلال، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

□ وفي حاشية الشيخ «زادة» علىٰ «البيضاوي» قال: «لم يُشرحْ صَدْرُ أحدٍ من العالمين، كما شُرِح صدره عليه السلام، حتىٰ وَسع علومَ الأوَّلين والآخرين، فقال: «**أوتيتُ جوامعَ الكَلِم**»..» اهـ.

ومرادُه بعلوم الأوَّلين والآخرين، ما جاء في القرآن من أخبارِ الأمم الماضية مع رُسلهم وأخبارِ المعاد، وما بينه وبين ذلك مِمَّا علَّمه اللَّه تعالىٰ.

□ «والذي يظهرُ ـ واللَّه تعالىٰ أعلم ـ: أن شرح الصدر المُمْتَنَّ به عليه ﷺ، أوسعُ وأعمُّ من ذلك، حتىٰ إنه لَيشملُ صَبْرَه وصَفْحَه وعَفْوَه عن أعدائه، ومقابلتَه الإساءةَ بالإحسان، حتىٰ إنه ليَسَعُ العدوَّ، كما يسعُ الصديق، كقصه عودته من «ثقيف»: إذْ آذوه سفهاؤهم، حتىٰ ضاق مَلَكُ الجبال بفعِلهم، وقال له جبريل عليه السلام: «**إن مَلَكَ الجبال معي، إن أردت أن يُطبقَ عليهم الأَخْشَبَينِ فَعَلَ**»، فينشرحُ صدره إلىٰ ما هو أبعد من ذلك، ولكأنهم لم يُسيؤوا إليه، فيقول ﷺ: «**اللَّهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون، إني لأرجو أن يُخرجَ اللَّهُ من أصلابهم من يقول: لا إله إلا اللَّه**

محمد رسول اللّه» ﷺ»[١] .

* ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ :

◻ «نَمْلأُه إيمانًا وحِكمَةً ورأفةً وعِلمًا ورحمةً، فانفسح جدًّا حتى وَسعَ مناجاةَ الحقِّ ودعوةَ الخلق، فكان مع الحق بعظمته وارتفاعه، ومع الخلق بفيضِ أنوارِه وشعاعِه»[٢] .

◻ قال ابنُ القيم: «شَرَحَ اللَّه صَدْرَ رسولِه أتمَّ الشرح، ووضع عنه وِزرَه كلَّ الوضع، ورَفَع ذِكرَه كلَّ الرفع» .

* ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾[٣] :

◻ قال أبو حيان: «هو كنايةٌ عن عِصمته ﷺ من الذنوب وتطهيرِه من الأرجاس» .

◻ وقال ابن جرير: «وغَفَرْنا لك ما سَلَف من ذنوبك، وحَطَطْنا عنك ثُقْل أيامِ الجاهلية التي كنتَ فيها» .

◻ وقال ابن كثير: «هو بمعنى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢]» .

◻ قال ابن القيم: «وأمَّا وَضعُ وِزرِه: فكيف لا يُوضَع عنه ومَن في

(١) «تتمة أضواء البيان» (٩/ ٣٠٨-٣١٠) .

(٢) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (٢/ ١١٦) - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة .

(٣) سنذكر مبحث «العصمة» بالتفصيل في كتابنا التالي «الكوكب الدُّرِّي في خصائص النبي ﷺ» .

السماوات والأرض ودوابُّ البَرِّ والبحرِ يستغفرون له؟!!».

* ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾:

□ للَّه درُّ حسانِ بنِ ثابت وهو يقول:

أَغَـــرُّ عَلَيْه للنُّبُـــوَّةَ خاتَـــمٌ ... مِنَ اللَّه مَشْــهودٌ يَلُــوحُ ويُشْــهَدُ
وضَــمَّ الإلهُ اسْــمَ النبيِّ إلى اسمه ... إذا قالَ في الخَمْسِ المُؤَذِّنُ «أَشْهَدُ»
وَشَــقَّ لهُ من اســمه لِيُجِــلَّهُ ... فَذُوا العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ[1]

رفعناه في الملأ الأعلىٰ، ورفعناه في الأرض، ورفعناه في هذا الوجود جميعًا.. رفعناه فجعلنا اسمَه مقرونًا باسم اللَّه كُلَّمَا تحرَّكَتْ به الشِّفاه: «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه ﷺ»، وليس بعد هذا رفع، وليس وراءَ هذا منزلة، وهو المَقامُ الذي تفرَّد به ﷺ دون سائر العالمين.

□ ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ، حين قَدَّر اللَّهُ أن تمرَّ القرون، وتَكرَّ الأجيال، وملايينُ الشِّفاهِ في كلِّ مكانٍ تهتفُ بهذا الاسمِ الكريم مع اللَّه والتسليم، والحبِّ العميق العظيم.

□ ورفعنا لك ذكرك، وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهيِّ الرفيع، وكان مُجردُ الاختيارِ لهذا الأمر رفعةَ ذكرٍ لم يَنَلْها أحدٌ من قبلُ ولا من بعدُ في هذا الوجود.

□ ورفعنا لك ذِكرَك: هو حِسِّي في الأذان والإقامة، وفي الخُطب علىٰ المنابر، وافتتاحياتِ الكلام في الأمور الهامة.

□ ومِن رَفْع الذكرِ معنًىٰ ـ أَيْ من الرفعة ـ: ذِكرُه ﷺ في كتب الأنبياء

(١) «ديوان حسان بن ثابت» (ص١٣٤).

قبله، حتىٰ عُرِف للأمم الماضية قبل مجيئه.

☐ وجعل اللَّهُ الوحيَ ذِكرًا له ولقومه، قال تعالىٰ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٣ـ٤٤]، ومعلومٌ أن ذِكرَ قومه ذِكرٌ له.

☐ ومِن رفع ذِكرِهِ توجيهُ الخطاب إليه بالنبوة والرسالة: «يا أيها الرسول»، «يا أيها النبي» والتصريح به في مقام الرسالة «محمد رسول اللَّه».

☐ قال الشافعي عن مجاهد في تفسير: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: «لا أُذْكَر إلاَّ ذُكِرْتَ معي: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه».

قال الشافعي يعني: «ذِكرَه ﷺ عند الإيمان باللَّه تعالىٰ والأذان، ويُحتمل ذِكرُه عند تلاوة القرآن، وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية.

فالفاعلُ للطاعة أو الكافُّ عن المعصية امتثالاً لأمر اللَّه تعالىٰ به ذاكرٌ للنبي ﷺ بقلبه؛ لأنه المُبلِّغُ لنا عن اللَّه تعالىٰ، وهذا أعمُّ من الذِّكر باللسان، فإنه قاصرٌ علىٰ الإسلام والأذان والتشهُّد والخطبة ونحوها.

قال الشافعي: فلم تُمْسِ بنا نعمةٌ ظَهرت ولا بَطَنَتْ نِلْنا بها حظًّا في دينٍ أو دُنيا، أو دُفع عنا بها مكروهٌ فيهما، أو في واحدٍ منهما، إلاَّ ومحمدٌ ﷺ سببُها».

* ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾:

* ذُكِرْتَ في الكتب المُتقدِّمة، وجُعِل ذِكرُك في القرآن مقرونًا بذكره

وهذا منتهى قمة الثناء. . قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٣]، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ النساء: ٥٩]، وقُرِن ذكرُك بذِكرِ ربِّك في الأذان والصلاةِ والخطب، فهل تريد شرفًا فوق هذا؟!.

* جَعَل اللَّه طاعتك طاعته، وبيعتك بيعته ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

◻ مِلءِ العالَمُ من أتباعك، كلُّهم يُثنون عليك، ويُصلُّون عليك، ويَحفظون سُنَّتك، بل ما من فريضةٍ من فرائضِ الصلاة إلاَّ ومعها سُنَّة، فهم يَمتثِلون في الفريضة أمرَ اللَّه، وفي السُّنَّة أمرَك.

لا تأنفِ السلاطينُ من اتِّباعك، والقُرَّاءُ يَحفَظون ألفاظَ منشورك، والمُفسِّرون يُفسِّرون معاني فُرقانِك، والوُعَّاظُ يُبلِّغون وَعْظَك، بل العلماءُ والسلاطين يَشْرَفون بخدمتك.

يَذكُرُك كلُّ مُصَلٍّ وكُلُّ مُسَبِّحٍ وكلُّ حاجٍّ وكلُّ خطيب، فهل تطلبُ مجدًا أعلَى مِن هذا؟ أنت مذكورٌ في التوراة والإنجيل، ومُنَوَّهٌ باسمك في الصُّحُف الأُولى، والدواوينِ السابقة، اسمُك يُشادُ به في النوادي، ويُذكَر في الحواضِرِ والبوادي، ويُمدَح في المحافِل، ويُكرَّرُ في المجامع.

◻ رفعنا لك ذكرك، فسار في الأرض مَسيرَ الشمس، وعَبَر القَّارات عُبور الريح، وسافر في الدنيا سَفَرَ الضوء، فكلُّ مدينةٍ تَدرِي بك، وكلُّ بلدٍ يَسمعُ بك، وكلُّ قرية تَسألُ عنك.

◻ رفعنا لك ذِكرَك، فصِرْتَ حديثَ الرَّكْب، وقِصةَ السَّمَر، وخَبَرَ

المجالس، وقضيةَ القضايا، والنبأَ العظيمَ في الحياة.

◻ رفعنا لك ذكرَك، فما نُسي مع الأيام، ومَا مُحِيَ مع الأعوام، وما شُطب من قائمةِ الخُلود، وما نُسخ من ديوانِ التاريخ، وما أُغفِل من دفتر الوجود، نُسِي الناسُ إلاَّ أنت، وسَقَطت الأسماءُ إلاَّ اسمَك، وأُغفِل العظماءُ إلاَّ ذاتَك، فمَن ارتَفَع ذِكرُه من العُبَّاد عندنا، فبسبب اتِّباعك، ومَن حُفِظ اسمُه فبسبب الاقتداءِ بك.. ذهبت آثارُ الدول وبَقِيَتْ آثارُك، ومُحِيت مآثرُ السلاطين وبَقِيَتْ مآثرُك، وزالتْ أمجادُ الملوك وخُلِّد مجدُك، فليس في البشر أشرحُ منك صَدْرًا، ولا أرفعُ منك ذِكرًا، ولا أعظمُ مِنك قَدْرًا، ولا أحسنُ منك أَثَرًا، ولا أجملُ منك سَيْرًا.

إذا تشهَّد مُتشهِّدٌ ذَكَرك مع اللّه، وإذا تهجَّد متهجِّدٌ سمَّاك مع اللّه، وإذا خَطب خطيبٌ نوَّه بك مع اللّه.

* ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، رِفعةٌ تتلاشىٰ عندها رفعةُ غيرك من الخَلْق كلِّهم.

رفعنا لك ذِكرَك عند جميع العالَمين العقلاء بالصِّدق والأمانة والحِلم والرَّزانة ومكارمِ الأخلاق وطهارةِ الشِّيَم وانتفاءِ شوائبِ النقصِ، حتىٰ ما كانت شُهرتُك عند قومك قبلَ النبوَّة إلا «الأمين»، وكانوا يضربون المَثَلَ بشمائِلك الطاهرة، وأوصافِك الزاهرة الباهرة.

ولك الفضائلُ والمناقبُ والشمائلُ التي لا تُضبَطُ بالوصف، ولا يُحصيها وَصفٌ أو حَصر.

* ﴿ إِنَّا فَتَحنا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ :

● عن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لقد أُنْزلتْ عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ مِنَ الدُّنيا جميعًا: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ عظيماً ﴾»[1] .

● وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لقدْ أُنزلت عليَّ الليلةَ سُورةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إليَّ مما طلعتْ عليه الشمسُ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾»[2] .

❑ قال أنس ﷺ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾: «الحديبية».

❑ وعن البراء قال: «تَعُدُّون أنتم الفتْحَ: فتْحَ مكة، وقد كان فتْحُ مكة فَتْحًا، ونحن نَعُدُّ الفتح بَيْعة الرِّضوان يومَ الحُدَيْبية، كُنَّا مع رسول اللَّه ﷺ خَمْسَ عشرة مِئةً. . والحُديبيةُ بئرٌ»[3] .

● وفي حديث سهل بن حُنيف: «فنزل القرآنُ علىٰ رسول اللَّه ﷺ، فأرسل إلىٰ عمرَ، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول اللَّه، أوَ فتحٌ هو؟! قال: «نعم».. فطابتْ نفسُه»[4] .

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، والبخاري، والترمذي.

(٣) أخرجه أحمد (٣٠/ ٥٣٢، ٥٣٣، ٦١٣) (١٨٥٦٣، ١٨٥٦٤، ١٨٦٧١)، والبخاري (٤١٥٠)، وابن حبان (٤٨٠١) والبغوي في «شرح السنة» (٣٨٠١)، والبيهقي (٩/ ٢٢٣).

(٤) أخرجه أحمد (٢٥/ ٣٤٨، ٣٤٩) (١٥٩٧٥)، والبخاري (٤٨٤٤)، ومسلم (١٧٨٥) والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٥٠٤)، والبيهقي (٩/ ٢٢٢، ٢٢٣)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٣٨، ٤٣٩)، (١٥/ ٣١٧-٣١٩)، والطبراني (٥٦٠٤) (٦/ ١٠٩).

□ قال الشعبيُّ: «نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بالحديبية، وأصاب في تلك الغزوة ما لم يُصِبْ في غزوة؛ أصاب أن بُويع بيعةَ الرِّضوان، وغُفِر له ما تقدَّم من ذنبِه وما تأخَّر، وظَهَرت الرُّومُ علىٰ فارس، وبَلَغ الهَدْيُ مَحِلَّه، وأُطعِموا نخلَ خيبر، وفرح المؤمنون بتصديق النبي ﷺ وبظهورِ الروم علىٰ فارس»[1].

□ وقال الزُّهريُّ عن صُلح الحديبية: «فما فُتح في الإسلام فتحٌ قبلَه كان أعظمَ منه، إنما كان القتالُ، حيث التقىٰ الناسُ، فلما كانت الهُدنة، ووُضِعت الحرب، وأمِنَ الناسُ بعضُهم بعضًا، والتَقَوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يُكلَّمْ أحدٌ في الإسلام يَعقل شيئًا إلاَّ دخل فيه، ولقد دَخَل في تَيْنِكَ السَّنتين[2] مِثلُ مَن كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر».

□ قال ابن هشام: «والدليلُ علىٰ قول الزهريِّ: أن رسول اللّه ﷺ خَرَج إلىٰ الحديبية في ألفٍ وأربعِمِئةٍ في قولِ جابر بن عبداللّه، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتينِ في عشرة آلاف».

فَرِح قلبُ رسولِ اللّه ﷺ الكبيرُ فرحًا كبيرًا بهذه السورة، فرح قلبُه بالفتح، الذي كان فتحًا في الأرض، وفتحًا في الدعوة، وفتحًا في النُّفوس والقلوب، تُصوِّرُه بيعةُ الرضوان وشفافيةُ المُبايِعِين ووضاءتُهم وتكريمُ اللّهِ لهم ورضاه عنهم.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ٢٤٤)، و«تفسير عبدالرزاق» (٢/ ٢٢٥)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٦٨).

(٢) «بين صلح الحديبية وفتح مكة».

فَرِح بالفتح المبين، وفَرِح بالمغفرة الشاملة، وفَرِح بالنعمة التامة، وفَرِح بالهداية إلىٰ صراط اللَّه المستقيم، وفَرِح بالنصر العزيز الكريم، وفَرِح برضىٰ اللَّه عن المؤمنين ووَصْفِهم ذلك الوصفَ الجميل.

*** والفتوحاتُ على رسول اللَّه ﷺ كثيرة:**

فُتحت لك القلوبُ فغَرَسْتَ فيها الإيمان، فُتحت لك الضمائرُ فبَنَيْتَ فيها الفضيلة، فُتحت لك الصُّدورُ فرفَعْتَ فيها الحقَّ، فُتحت لك البلدانُ فنشرت بها الهُدىٰ، وفتحنا لك كنزَ المعرفة، وديوانَ العِلم، ومستودعَ التوفيق، وفتحنا بدعوتك القلوبَ الغُلْفَ، والعيونَ العُمْيَ، والآذانَ الصُمَّ.

فتحنا لك، فتدَّفقَ العلمُ النافعُ من لسانك، وفاض الهُدَىٰ المباركُ من قلبك، وسَحَّ الجُودُ من يمينك.

وفتحنا لك، فحُزْتَ الغنائمَ وقَسَمْتَها، وجَمَعْتَ الأرزاق ووزَّعْتَها، وحَصُلْتَ علىٰ الأموال وأنفقتَها.

وفتحنا لك بابَ العلمِ ـ وأنت الأُمِّيُّ الذي ما قرأ وكَتَب ـ، فصار العلماءُ يَنْهَلون من بحارِ عِلمك..

قَطَفَ الرجالُ القولَ قبل نباته وقطفتَ أنت القول لَمَّا نوَّرَا

وفتحنا عليك الخيرَ، فوَصَلْتَ القريبَ، وأعطيتَ البعيد، وأشبعتَ الجائع، وكَسَوْتَ العاري، وواسيْتَ المسكين، وأغنيْتَ الفقيرَ برزقِ مولاك.

فُتِحت له القِلاعُ والمُدن والقرىٰ، فهَيْمَنَ دينُه، وارتفعت رايتُه، وانتَصرت دولتُه، فهو مفتوحٌ عليه في كلِّ خيرٍ وبرٍّ وإحسانٍ ونصرٍ وتوفيق.

فُتِحت له فتوحُ العبارة، وأُعطي جوامعَ الكَلِم، وفتوحَ الحلاوة في

الباطن، فهو الذي يَبيتُ عند ربِّه يُطعمُه ويَسقيه.. وفُتحت له أقطارُ السماوات، فتجاوز طِباقَها طَبَقًا بعد طبقٍ إلىٰ سِدْرَةِ المنتهىٰ، فُتحت له أبوابُ الجِنانِ فرأىٰ ما فيها ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

* أنواع العطايا في آيات الفتح:

* قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١: ٣].

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «ما جَمَع اللَّهُ سبحانه لرسوله في آيةِ الفتح من أنواعِ العطايا، وذلك خَمسةُ أشياء:

أحدها: الفتحُ المبين.

والثاني: مغفرةُ ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر.

والثالث: هدايتُه الصراطَ المستقيم.

والرابع: إتمامُ نعمته عليه.

والخامس: إعطاءُ النصر العزيز.. وجَمَع سبحانه له بين الهُدىٰ والنصر؛ لأن هذيْن الأصلَيْن بهما كمالُ السعادة والفلاح، فإنَّ الهدىٰ هو العلمُ باللَّه ودينه، والعملُ بمرضاته وطاعته، فهو العلمُ النافع والعملُ الصالح، والنصرُ والقُدرةُ التامة علىٰ تنفيذ دينه.

فالحُجةُ والبيانُ والسيفُ والسِّنان، فهو النصرُ بالحجة واليد، وقَهَر قلوبَ المخالفين له بالحجة، وقَهَر أبدانهم باليد»[١].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٦).

* ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: «بإظهاره إياك على عدوك، ورَفْعِه ذِكرَك في الدنيا، وغفرانِه ذنوبك في الآخرة.

* ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: ويُرشدك طريقًا من الدِّين لا اعوِجاجَ فيه، يستقيمُ بك إلى رضا ربِّك.

* ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾: وينصرُك اللَّهُ على سائر أعدائك ومَن ناوَأكَ، نصرًا لا يَغْلِبُه غالبٌ، ولا يَدْفَعْه دافعٌ؛ للبأس الذي يُؤَيِّدك اللَّهُ به، وبالظَّفَر الذي يُمِدُّك به»[1].

* ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾:

قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عكرمة: «يعني النجوم التي تُرمَىٰ بها الشياطين إذا سَقطت في آثارها عند استراق السمع.. وهذا قول الحسن، وهو أظهرُ الأقوال، ويكون سبحانه قد أقسَمَ بهذه الآية الظاهرة المشاهَدة التي نَصَبها اللَّه سبحانه آيةً وحِفْظًا للوحي من استراق الشياطين له على أنَّ ما أتىٰ به رسولُه حقٌّ وصِدقٌ، لا سبيلَ للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد أُحرِس بالنجم إذا هَوَىٰ رَصَدًا بين يدي الوحي، وحَرَسًا له.

وبين المقسَم به والمُقسَمِ عليه من التناسب ما لا يَخفىٰ؛ فإن النجومَ التي تَرمي الشياطينَ آيةٌ مَن آيات اللَّه، يَحفظُ بها دينَه ووحيَه وآياتِه المنزَّلةَ علىٰ رسوله، بها ظَهَر دينُه وشَرعُه، وأسماؤه، وصفاته، وجُعِلت هذه النجومُ المشاهَدة خَدَمًا وحَرَسًا لهذه النجوم الهاوية.

ونَفَىٰ سبحانه عن رسوله ﷺ الضلالَ المنافيَ للهدي، والغَيَّ المنافيَ

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ٢٤٤-٢٤٥).

للرشاد، ففي ضمن هذا النفي الشهادةُ له بأنه على الهدىٰ والرشاد، فالهدىٰ في عِلمه، والرشادُ في عمله، وهذان الأصلان هما غايةُ كمالِ العبد، وبهما سعادتُه وفلاحُه، وبهما وَصَفَ النبيُّ ﷺ خلفاءَه، فقال: «عليكم بسُنَّتي وسُنة الخلفاءِ الراشدين المَهْدِيِّينَ من بعدي»(١) ، فالراشد ضدُّ الغاوي، والمَهْدِيُّ ضدُّ الضال، وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو صاحبُ الهدىٰ ودينِ الحق، ولا يَشتبِهُ الراشدُ المَهدِيُّ بالضالِّ الغَوِيِّ إلاَّ علىٰ أجهلِ خَلقِ اللّه، وأعماهم قلبًا وأبعدِهم من حقيقة الإنسانية.

ولِلّه درُّ القائل:

وما انتفــاعُ أخي الدنيا بناظِــرِه إذا اســتوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

وتأمَّلْ كيف قال سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل: «ما ضلَّ محمدٌ»، تأكيدًا لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم بأنه صاحبُهم، وهم أعلمُ الخلق به وبحاله وأقوالِه وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكَذِبٍ ولا عِيٍّ ولا ضلال، ولا يَنقِمون عليه أمرًا واحدًا قط». اهـ من كلام ابن القيم.

* ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]:

قال ابن القيم: «قال سبحانه يُنزِّهُ نُطقَ رسوله أن يَصدُرَ عن هوًىٰ، وبهذا الكمال هداه وأرشده، وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ولم يقل: «وما ينطق بالهوىٰ»؛ لأن نُطقَه عن الهوىٰ أبلغُ، فإنه يتضمَّنُ أن نُطقَه لا يَصدرُ عن هوًىٰ، وإذا لم يَصدُرْ عن هوًىٰ فكيف ينطقُ به؟! فتضمَّن نَفْيَ

(١) صحيح: رواه أحمد والأربعة إلا النسائي، ورواه ابن حبان، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

الأمرَيْن: نفيَ الهوىٰ عن مَصْدَرِ النطق، ونفيَه عن النطق نفسه، فنطقُه بالحقِّ، ومصدرُه الهدىٰ والرشاد، لا الغيُّ والضلال.

ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فأعاد الضمير علىٰ المصدر المفهوم من الفعل، أيْ: ما نُطْقُه إلاَّ وحيٌ يُوحَىٰ، وهذا أحسنُ مِن قَوْل مَنْ جَعَل الضمير عائِدًا إلىٰ القرآن، فإنه يعمُّ نطقَه بالقرآن والسُّنة، وأَنَّ كليهما وحيٌ يُوحَىٰ».

* ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]:

سبحان مَن زكَّىٰ مُعلِّمَ محمدٍ ﷺ وجَلِيسَه وهو جبريل عليه السلام، خلَع أجملَ الصفاتِ عليه، فقال عنه: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥ ـ ٦]، وقال عنه أيضًا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]، فوصفه بأنه كريمٌ، قويٌّ، مكينٌ عند الرب تعالىٰ، مُطاعٌ في السماوات، أمين، فهذه خمسُ صفاتٍ تتضمَّنُ تزكيةَ سَنَدِ القرآن، وأنه سماعُ محمدٍ من جبريل، وسماعُ جبريل من ربِّ العالمين، فناهِيكَ بهذا السَّند علوًّا وجلالةً: قول اللَّه سبحانه بنفسه تزكيتَه.

* **الصفة الأولى**: كونُ الرسول الذي جاء به إلىٰ محمدٍ ﷺ كريمًا، ليس كما يقول أعداؤه: «إن الذي جاء به شيطان»، فإن الشيطانَ، خبيثٌ مُخبَّث، لئيمٌ، قبيحُ المنظر، عديمُ الخير، باطنُه أقبحُ من ظاهره، وظاهرُه أشنعُ من باطنه، وليس فيه ولا عنده خيرٌ، فهو أبعدُ شيءٍ عن الكرم، والرسولُ الذي ألقَىٰ القرآنَ إلىٰ محمد ﷺ كريم، جميلُ المنظر، بَهِيٌّ

الصورة، كثيرُ الخير، طيِّبٌ مطيِّب، معلِّمُ الطيِّبين، وكلُّ خير في الأرض مِن هدًىٰ وعلمٍ ومعرفةٍ وإيمانٍ وبرٍّ، فهو مما أجراه ربُّه علىٰ يده، وهذا غايةُ الكريم الصوري والمعنوي.

* وقال تعالىٰ: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦]، أي جميلُ المنظر، حسنُ الصورة، ذو جلالة، ليس شيطانًا أقبحَ خلقِ اللَّه وأشوهِهم صورةً؛ بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمِهم أمانةً ومكانةً عند اللَّهِ، وهذا تعديلٌ لسَنَدِ الوحي والنبوَّة وتزكيةٌ له.

فوَصَفَه بالعلم والقوَّة، وجمالِ المنظر وجلالته، وهذه كانت أوصافَ الرسول البشريِّ والمَلَكِيِّ، فكان رسولُ اللَّه ﷺ أشجعَ الناس، وأعلمَهم، وأجملَهم، وأجلَّهم.. والشياطينُ وتلامذتُهم بضدٍّ من ذلك، فهم أقبحُ الخلْق صورةً ومعنًى، وأجهلُ الخلقِ وأضعفُهم هِمَمًا ونُفوسًا.

* **الوصف الثاني: أنه ذو قوة:**

وفي ذلك تنبيهٌ علىٰ أمور:

أحدها: أنه بقوَّته يمنعُ الشياطينَ أن تدنوَ منه، وأن ينالوا منه شيئًا، وأن يَزيدوا فيه أو يَنقُصُوا منه، بل إذا رآه الشيطانُ هَرَب منه ولم يَقْرَبْه.

الثاني: أنه مُوَالٍ لهذا الرسول الذي كذَّبتموه؛ ومعاضِدٌ له، ومُوادٌّ له وناصرٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. ومَن كان هذا القويُّ وليَّه، ومِن أَنصاره، وأعوانه، ومعلِّمَه، فهو المَهدِيُّ المنصور، واللَّهُ هادِيه وناصرُه.

الثالث: أن مَن عادىٰ هذا الرسولَ فقد عادىٰ صاحبَه ووليَّه جبريل، ومَن عادَىٰ ذا القوّة والشدَّة، فهو عُرْضَةٌ للهلاك.

الرابع: أنه قادرٌ علىٰ تنفيذِ ما أُمِر به لقوَّته، فلا يَعجزُ عن ذلك، مؤدٍّ له كما أُمر به لأمانته، فهو القويُّ الأمين، وأحدُكم إذا انتدب غيرَه في أمرٍ من الأمور لرسالة، أو ولاية، أو وكالةٍ أو غيرها، فإنما ينتدبُ لها القويَّ عليها الأمينَ علىٰ فعلها.

وإن كان ذلك الأمرُ من أهمِّ الأمور عنده انتدب له قويًّا، أمينًا، معظَّمًا، ذا مكانةٍ عنده، مُطاعًا في الناس، كما وَصَفَ اللَّهُ عبدَه جبريل بهذه الصفات.

هذا يدلُّ علىٰ عظمةِ شأنِ المرسِل، والرسول، والرِّسالة، المُرْسَل إليه، حيث انتدب له الكريمَ القويَّ، المكينَ عنده، المطاعَ في الملأ الأعلىٰ، الأمينَ حقَّ الأمين، فإنَّ الملوكَ لا تُرسِلُ في مهمَّاتها إلا الأشرافَ ذَوِي الأقدارِ والرُّتَبِ العالية.

* ﴿**عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ**﴾ [التكوير: ٢٠]:

أيْ: له مكانةٌ ووجاهةٌ عنده، وهو أقربُ الملائكة إليه، وفي قوله: ﴿**عِندَ ذِي الْعَرْشِ**﴾ إشارةٌ إلىٰ علوِّ منزلةِ جبريل، إذْ كان قريبًا من ذي العرش.

* ﴿**مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ [التكوير: ٢١]: إشارةٌ إلىٰ أنَّ جنودَه وأعوانَه يطيعونه إذا نَدَبهم لنصر صاحبِه وخليله محمد ﷺ، وفيه إشارةٌ أيضًا إلىٰ أنَّ هذا الذي تُكذِّبونه وتُعادُونه سيصيرُ مُطاعًا في الأرض، كما أن جبريلَ مطاعٌ في السماء، وأنَّ كُلاًّ مِن الرسولَيْن مطاعٌ في مَحلِّه وقومه، وفيه تعظيمٌ له بأنه بمنزلةِ الملوك المُطَاعِين في قومهم، فلم يُنتدبْ لهذا الأمر العظيم إلاَّ مثلُ هذا

المَلَك المُطاع.

◻ وفي وصفِه بالأمانة إشارةٌ إلىٰ حِفظه ما حَمَله، وأدائِه له علىٰ وجهه» اهـ.

* ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١]:

◻ «سبحان مَن زَكَّىٰ قلبَ عبدِه ومصطفاه وخليلِه، فقال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١].

فقد أخبر تعالىٰ عن تصديق فؤادِ النبي ﷺ ما رأته عيناه، وأن القلبَ صَدَّق العين، وليس كمَن رأىٰ شيئًا علىٰ خلافِ ما هو به، فكَذَّب فؤادُه بَصرَه، بل ما رآه ببصرِه صَدَّقة الفؤادُ وعَلِم أنه كذلك».

◻ «قرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان: (ما كَذَب) خفيفة، وفي هشام ابن عمار: (ما كَذَّب) مُشدَّدة، وقرأ الباقون: (ما كَذَب) مخفَّفة الذال»[(١)].

و«ما» إمَّا أن تكون مَصدريَّة، فيكون المعنىٰ: ما كَذَّب فؤادُه رؤيتَه، وإمَّا أن تكون موصولة، فيكون المعنىٰ: ما كَذَّب الفؤادُ الذي رآه بعينه. وعلىٰ التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلبِ لرؤية البصر، وتوافقِهما، وتصديقِ كلٍّ منهما لصاحبه.

وهذا ظاهرٌ جدًّا في قراءة التشديد.

وعلىٰ القراءتَيْن فالمعنىٰ: ما أَوْهَمَه الفؤادُ أنه رأىٰ ولم يَرَ، ولا اتَّهم بَصَرَه.

* ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]:

◻ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما زاغ البصرُ يمينًا ولا شِمالاً، ولا جاوز ما

(١) انظر كتاب «السبعة في القرآءات» لابن مجاهد (ص٦١٤).

أُمِر به».

وعلىٰ هذا المفسِّرون، فنَفَىٰ عن نبيِّه ما يَعرِضُ للرائي الذي لا أدبَ له بين يَدَيِ الملوك والعظماء، من التفاته يمينًا وشمالاً، ومجاوزةِ بصرِه لما بيْن يديْه، وأخبر عنه بكمالِ الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحَضْرة، إذْ لم يلتفت جانبًا، ولم يَمُدَّ بَصَرَه إلىٰ غير ما رأىٰ مِن الآيات، وما هنالك من العجائب، بل قام مَقامَ العبد الذي أوجب أدبُه إطراقَه وإقبالَه علىٰ ما أُري، دون التفاتِه إلىٰ غيره، ودون تطلُّعه إلىٰ ما لَم يَرَه، مع ما في ذلك من ثباتِ الجأش، وسكون القلب، وطمأنينته.. وهذا غايةُ الكمال.

وزَيغُ البصرِ: التفاتُه جانبًا.. وطغيانُه: مَدُّه أمامَه إلىٰ حيث ينتهي.

فنَزَّه في هذه السورة عِلمَه عن الضلال، وقَصْدَه وعَمَلَه عن الغَيِّ، ونُطقَه عن الهوىٰ، وفؤاده عن تكذيب بصره، وبَصَرَه عن الطغيان، وهكذا يكون المدحُ..

تلك المكارمُ لا قُعبانُ من لبنٍ شِيبَا بمـــاءٍ فعادا بعـدُ أبوالا

* * *

* سيِّد البَشَرِ ﷺ أكملُ الأنبياء أدبًا:

* قال تعالىٰ في وصف أدبه ﷺ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، أُفُقٌ وضيءٌ طليقٌ مرفرِف، عاش فيه قلبُ رسولنا ﷺ وبصرُه.. لحظاتٌ خُصَّ بها القلبُ المصفَّىٰ، وأدبٌ مِن بَصَرِ رسولِ اللَّه ﷺ، لم يتجاوزْ رُتبَتَه وكُلُّه شَوْق، فأعطاه اللَّه ما لم يُعطِ أحدًا غيره.

❑ قال ابن القيم: «إن هذا وصْفٌ لأدبه ﷺ في ذلك المَقام؛ إذْ لم

يَلتفتْ جانبًا، ولا تجاوَزَ ما رآه، وهذا كمالُ الأدب.. والإخلالُ به أن يلتفتَ الناظرُ عن يمينه وعن شماله، أو يتطلَّعَ أمامَ المنظور، فالالتفاتُ زَيْغ، والتطلُّعُ إلىٰ ما أمامَ المنظور طغيانٌ ومجاوَزَة؛ فكمالُ إقبالِ الناظرِ علىٰ المنظور: أن لا يَصْرِفَ بَصَرَه عنه يَمنةً ولا يَسْرةً، ولا يتجاوزه.

وهذا معنىٰ ما حصَّلْتُه عن شيخِ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس اللَّه روحه ـ.

وفي هذه الآيةِ أسرارٌ عجيبة، وهي من غوامضِ الآداب اللائقةِ بأكمل البَشَر ﷺ؛ تواطأ هناك بَصَرُه وبَصيرتُه، وتوافَقَا وتصادقَا فيما شاهَدَه بصرُه، فالبصيرةُ مواطِئةٌ له، وما شاهَدَته بصيرتُه فهو أيضًا حقٌّ مشهودٌ بالبصر، فتواطأ في حقِّه مَشهَدُ البصر والبصيرة.

* ولهذا قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١١ ـ ١٢]، أي: ما كَذَبَ الفؤادُ ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر: «ما كَذَّبَ الفؤادُ ما رأىٰ» ـ بتشديد الذال ـ، أي: لم يُكذِّبِ الفؤادُ البصرَ، بل صَدَّقَه وواطأه؛ لصحَّةِ الفؤادِ والبصر، أو لاستقامةِ البصيرةِ والبصر، وكونِ المرئيِّ المشاهَد بالبصر والبصيرة حقًّا.

وقرأ الجمهور ﴿ما كذب الفؤاد﴾ ـ بالتخفيف ـ، وهو مُتَعَدٍّ، و«ما رأىٰ» مفعوله؛ أي: ما كَذَّبَ قلبُه ما رأته عيناه؛ بل واطأه ووافَقَه، فلمواطأةِ قلبِه لقالَبِه، وظاهرِه لباطنه، وبصره لبصيرته؛ لم يُكذِّبِ الفؤادُ البصرَ، ولم يتجاوزِ البصرُ حدَّه فيطغىٰ، ولم يَمِلْ عن المَرْئيِّ فيَزيغ؛ بل اعتدلَ البصرُ نحو المرئي، ما جاوَزَه ولا مال عنه، كما اعتَدَل القلبُ في الإقبالِ علىٰ اللَّه

والأعراضِ عَمَّا سواه؛ فإنه أقبل علىٰ اللَّه بِكُلِّيَّتِهِ.

وللقلب زَيْغ وطغيان، كما للبصر زَيْغ وطُغيان، وكلاهما مُنتفٍ عن قلبه وبصره، فلم يَزِغْ قلبُه الْتفاتًا عن اللَّه إلىٰ غيره، ولم يَطْغَ بمجاوزتِه، وهذا غايةُ الكمالِ والأدبِ مع اللَّه، الذي لا يَلحقُه فيه سواه، فإن عادةَ النفوسِ إذا أُقيمتْ في مقامٍ عالٍ رفيع: أن تتطلَّع إلىٰ ما هو أعلىٰ منه وفوقه؛ ألاَ ترىٰ أن موسىٰ ﷺ لَمَّا أُقيم في مقامِ التكليم والمناجاة طَلبت نفسُه الرؤية؟! ونبينا ﷺ لَمَّا أُقيم في ذلك المقام، وفَّاه حقَّه، فلم يلتفتْ بصرُه ولا قلبُه إلىٰ غيرِ ما أُقيم فيه ألبتة؟! ولأجل هذا ما عاقَه عائقٌ، ولا وَقَفَ به مرادٌ، ولَم تَقِفْ به دونَ كمال العبودية هِمَّةٌ، ولهذا كان مركوبُه في مَسْرَاه يَسبقُ خَطْوُهُ الطرْفَ، فيضع قدمَه عند منتهىٰ طرْفه، مُشاكلاً لحال راكبه وبُعْدِ شأوه، الذي سَبَق العالَمَ أجمعَ في سَيْره، فكان قَدَمُ البُراقِ لا يَختلفُ عن موضعِ نظَرِه، كما كان قَدَمُه ﷺ لا يتأخَّرُ عن محلٍّ معرفته.

فلم يزلْ ﷺ في خِفارةِ كمالِ أدبه مع اللَّه سبحانه، وتكميلِ مراتب عبوديته له، حتىٰ خَرَق حُجُبَ السموات، وجاوَزَ السبْعَ الطِّباق، وجاوَزَ سِدْرَةَ المنتهىٰ، ووصل إلىٰ محلٍّ منَ القُرْب سَبَق به الأوَّلين والآخرين، فانصبَّتْ إليه هناك أقسامُ القُرْب انصبابًا، وانقَشَعت عنه سَحائبُ الحجُب - ظاهرًا وباطنًا - حِجابًا حجابًا، وأُقيم مقامًا غَبَطَهُ به الأنبياءُ والمرسلون؛ فإذا كان في المعاد، أُقيم مقامًا مِن القرْب ثانيًا، يَغبِطُه به الأوَّلون والآخرون. .

واستقام هناك علىٰ صراطٍ مستقيم مِن كمالِ أدبِه مع اللَّه، ما زاغ البصر عنه وما طغىٰ، فأقامه في هذا العالَم علىٰ أقومِ صراطٍ من الحقِّ والهدىٰ، وأقسم بكلامِهِ علىٰ ذلك في الذِّكر الحكيم، فقال تعالىٰ: ﴿يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ

الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ١-٤]، فإذا كان يومُ المعاد، أقامه على الصراطِ يَسألُه السلامةَ لأتباعه وأهل سُنَّته، حتى يَجُوزَه إلى جنَّاتِ النعيم، وذلك فَضْلُ اللَّه يؤتيه مَنْ يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم»[1] .

وكلُّ الآداب تُتَلَقَّى من رسولِ اللَّه ﷺ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام مَجْمعُ الآداب ظاهرًا وباطنًا.

* صاحبُ الإسراء والمعراج - بأبي هو وأمي -:

* قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

[الإسراء: ١].

* وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾

[النجم: ١٠-١٨].

أنوارٌ تَشعُّ من المجال العُلويِّ الذي تقعُ فيه الأحداثُ النُّورانيَّةُ والمَشَاهدُ الربَّانية.. نَعيشُ لحظاتٍ من ذلك الأفق الوضيءِ المرفرفِ الذي عاش فيه قلبُ رسولنا العظيم ﷺ، ونَرِفُّ بأجنحةِ النور المنطلقةِ إلى ذلك الملأ الأعلى.. نَعيشُ لحظاتٍ مع قلبِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ مكشوفةٍ عنه

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٨٢-٣٨٤).

الحجب، مُزاحةٍ عنه الأستار، يتلقَّىٰ من الملأ الأعلىٰ، يَسمعُ ويرىٰ، ويَحفظُ ما وَعَىٰ، وهي لحظاتٌ خُصَّ بها ذلك القلبُ المصفَّىٰ.

هي عِيانٌ مشهود، ورؤيةٌ محقَّقه، ويَقينٌ جازم، واتِّصالٌ مباشر، وقُربٌ من عَرشِ الرحمن فوقَ طاقتِنا أن نُدرِكَ كيفيتَه، ومعرفةٌ مؤكدة عُلْوِيَّة، وصحبةٌ محسوسة، ورِحْلةٌ واقعيةٌ بالرُّوح والجَسَد.

قصة الإسراء والمعراج هي من خصائصِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ، هذا النَّجمُ الإنسانيُّ العظيمُ، والنورُ لهداية العالَم في حَيْرَة ظُلماته النفسيَّة.

وقد حار المفسِّرون في حِكمةِ ذِكر «الليل» في آية «الإسراء» من قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ الآية، فإن السُّرَىٰ في لغة العرب لا يكون إلاَّ ليلاً!.

والحكمةُ هي الإشارةُ إلىٰ أنَّ القصةَ قصَّةُ «النَّجمِ» الإنسانيِّ العظيمِ الذي جَمَع بين إنسانيته ورَفرفةِ قلبِه النُّورانيةِ في هذه المعجزة، ويُتمِّمُ هذه العجيبةِ أن آياتِ «المعراج» لم تجيء إلاَّ في سورة «النجم»!.

وعلىٰ تأويل أنَّ ذِكرَ «الليل» إشارةٌ إلىٰ قصة النجم، تكونُ الآيةُ برهانَ نفسِها، وتكونُ في نَسَقِها قد جاءت معجزةً من المعجزات البيانيَّة.

وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾، فإنها بهذه العبارة نصٌّ علىٰ إشراف النبي ﷺ فوقَ الزمانِ والمكان يرىٰ بغير حِجاب الحواسِّ مما مَرْجِعُه إلىٰ قُدرة اللَّه لا قُدرةِ نفسِه، بخلافِ ما لو كانت العبارةُ «ليرىٰ من آياتنا»؛ فإن هذا يجعلُه لنفسه في حدودِ قوَّتها وحواسِّها وزمانها ومكانها، فيضطربُ الكلام، ويتطرَّقُ إليه الاعتراضُ، ولا تكون ثَمَّ معجزةٌ.

وتحويلُ فعلِ «الرؤية» من صيغةٍ إلىٰ صيغة، معجزةٌ أخرىٰ.

وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ دون «بَعَث بعبده» و«أرسل به»، فقوله تعالىٰ يُفيد مصاحبَتَه له في مَسراه؛ فإن «الباء» هنا للمصاحَبة.

فجاز السماءَ السَّبْعَ في بعض ليلة ... ولكن بعدَ السَّبْعِ أين يَصيرُ؟
فلاحَ له من رفرفِ النــورِ لائحٌ ... من النور للهادي البشيرِ بشيرُ
وشاهَدَ تحت العرشِ كلَّ عجيبةٍ ... وما ثَمَّ إلاَّ زائــــرٌ ومــزورُ
حبيبٌ تمــلَّى بالحبيب فخصَّــهُ ... وشرَّفه بالقربِ وهو جديــرُ

والقصةُ بعد ذلك تُثبت أن هذا الوجودَ يَرقُّ وينكشفُ ويستضيءُ كلما سما الإنسانُ برُوحه، وهي من ناحيةِ النبي ﷺ قصةٌ تصفُه بخصائصِه في عظمتِه كما رأىٰ ذاتَه في ملكوت اللّه. . ومن ناحيةِ كلِّ مسلمٍ مِن أتباعه هي كالدرس في أن يكونَ لقلبِ المؤمن مِعراجٌ سماويٌّ فوقَ هذه الدنيا، ليشهدَ ببصيرته أنوارَ الحقِّ وجمالَ الخير، فيكونَ بتدبُّره القصةَ كأنما يَصعَدُ إلىٰ السماء وينزل.

* ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾:

أقسم سبحانه بالكتاب وآلتِه، وهو القلم الذي هو أحدىٰ آياتِه وأولُ مخلوقاتِه الذي جرىٰ به قَدَرُه وشَرْعُه وكُتِبَ به الوحي، وقُيِّد به الدِّين، وأُثبتت به الشريعة، وحُفِظت به العلوم. . وأقام في الناس أبلغَ خطيبٍ وأفصَحَه، وأنفعَه لهم وأنصحَه، وواعظًا تَشفي مواعظُه القلوبَ من السَّقَم، وطبيبًا يُبرِئُ بإذنه من أنواع الألم، يَكسر العساكرَ العظيمةَ علىٰ أنه الضعيفُ الوحيد، ويَخاف سطوتَه وبأسَه ذو البأس الشديد. . وبالقلم تُدَبَّرُ

الأقاليمُ وتُسَاسُ الممالكُ.. والقلمُ لسانُ الضمير، يُناجيه بما استتر عن الأسماع، فيَنسُجُ حُلَلَ المعاني على القِرطاس، فتعودُ أحسنَ مِنَ الوَشْيِ المرقوم، ويُودِعُها حِكمةً فتصير بوادرَ الفهوم.. والأقلامُ نظيرٌ للأفهام، وكما أن اللسانَ بريدُ القلب، فالقلمُ بريد اللسان، وتولُّدُ الحروفِ المسموعة عن اللسان كتولُّد الحروفِ المكتوبة عن القلم، والقلمُ بريدُ القلب ورسولُه وترجمانُه ولسانُه الصامت.

والمقسَمُ عليه بالقلم والكتابةِ في هذه السورة تنزيهُ نبيِّه ورسوله ﷺ عمَّا يقولُ فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]، وأنت إذا طابقْتَ بين هذا القَسَم والمقسَمِ به وجدتَه دَالاً عليه أظهرَ دلالةٍ وأبْيَنها، فإنَّ ما سَطَّر الكاتبُ بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقَّاها البشرُ بعضُهم عن بعضٍ لا تصدرُ عن مجنون، ولا تصدرُ إلاَّ من عقلٍ وافرٍ، فكيف يَصدرُ ما جاء به الرسولُ ﷺ مِن هذا الكتابِ ـ الذي هو في أعلى درجات العلوم ـ؟ بل العلوم التي تَضمَّنها ليس في قوى البشر الإتيانُ بها، ولا سيَّما مِن أُمِّيٍّ لا يقرأُ كتابًا ولا يَخُطُّه بيمينه، مع كونه في أعلى الفصاحة، سليمًا من الاختلاف، بَريًا من التناقض، يَستحيلُ من العقلاء كلِّهم لو اجتمعوا في صعيدٍ واحدٍ أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقل رَجُلٍ واحدٍ منهم، فكيف يتأتَّى ذلك من مجنونٍ لا عقلَ له يُميِّزُ به ما عَسى كثيرٌ من الحيوانِ أن يُميِّزه، وهل هذا إلاَّ مِن أقبحِ البُهتانِ وأظهرِ الإفك؟!.

فتأمَّلْ شهادةَ هذا المقسَمِ به للمقسَم عليه ودلالتَه عليه أتمَّ دلالة، ولو أنَّ رجلاً أنشأ رسالةً واحدةً بديعةً منتظمةَ الأول والآخر، متساويةَ الأجزاءِ يُصدِّقُ بعضُها بعضًا، أو قال قصيدةً كذلك، أوْ صَنَّف كتابًا كذلك، لشهد

له العقلاءُ بالعقل، ولما استجاز أحدٌ رَمْيَه بالجنون مع إمكانِ - بل وقوع - معارضتها ومشاكلتها والإتيانِ بمثلها أو أحسنِ منها، فكيف يُرمىٰ بالجنون مَن أَتَىٰ بما عَجَزَتِ العقلاءُ كلُّهم قاطبةً عن معارضته ومماثلته، وعرَّفهم من الحق ما لا تهتدي عقولُهم إليه، بحيث أذعنت له عقولُ العقلاء، وخَضَعت له ألبابُ الأولياء، وتلاشت في جَنبِ ما جاء به بحيث لم يَسَعْها إلاَّ التسليمُ له والانقيادُ والإذعان، طائعةً مختارةً، وهي ترىٰ عقولَها أشدَّ فقراً وحاجةً إلىٰ ما جاء به، ولا كمالَ لها إلاَّ بما جاء به؟ فهو الذي كمَّل عقولَها كما يَكمُلُ الطفلُ برَضاع الثدي، ولهذا فإنَّ أتباعَه أعقلُ الخلق علىٰ الإطلاق، وهذه مؤلَّفاتُهم وكُتبُهم في الفنون، إذا وازَنْتَ بينها وبين مؤلفاتِ مخالفيه ظهر لك التفاوتُ بينها، ويكفي في عقولهم أنهم عَمَّروا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوبَ بالإيمان والتقوىٰ، فكيف يكونُ مَتْبوعُهم مجنونًا وهذا حالُ كتابِه وهَديه وسِيرته وحالُ أتباعه؟!! وهذا إنما حَصَل له ولأتباعه بنعمةِ اللَّه عليه وعليهم، فنفىٰ عنه الجنونَ بنعمته عليه.

إن هذه الصفةَ المفتراةَ لا تجتمعُ مع نعمةِ اللَّه علىٰ عبدٍ نَسَبه اللَّهُ إليه وقرَّبه واصطفاه.

إن العَجَبَ ليأخذُ كلَّ دارسٍ لسيرةِ الرسول ﷺ في قومه من مَقولتهم هذه عنه، وهم الذين عَلِموا منه رَجاحةَ العقل حتىٰ حَكَّموه بينهم في رَفعِ الحَجَرِ الأسود قبل النبوَّة بأعوامٍ كثيرة، وهم الذين لقَّبوه بالأمين.

إن الإنسانَ ليأخذُه العَجَبُ أن يَبلُغَ الغيظُ بالناس إلىٰ الحدِّ الذي يَدفعُ مُشركي قريش إلىٰ أن يقولوا هذه القَوْلَةَ وغيرَها عن هذا النبي الرفيعِ الكريم ﷺ، المشهورِ بينهم برجاحةِ العقل وبالخُلُق القويم، ولكنَّ الحقدَ يُعمي

ويُصِمُّ، والغرضُ يَقذف بالفرْية دون تحرُّج! وقائلُها يعرفُ قبل كلٍّ أحد أنه كذَّاب أثيم!.

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.. هكذا في عطفٍ وفي إيناسٍ وفي تكريم، رَدًّا على ذلك الحقدِ الكافر، وهذا الافتراءِ الذميم.

* ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، لستَ مجنونًا كما قال أعداؤك، لكن عندك دَواءُ الجنون، فالمجنونُ الطائشُ والسفيهُ التافهُ مَن خالَفَك وعصاك وحارَبَك وجفاك.

* ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وكيف يكونُ ذلك وأنت أكمَلُهم عقلاً، وأتمُّهم رُشْدًا وأسدُّهم رأيًا، وأعظمُهم حِكمةً، وأجلُّهم بصيرةً!.

كيف تكون مجنونًا وأنتَ أَتيتَ بوحيٍ يكشف الزَّيْغَ، ويُزيل الضلال، ويَنسِفُ الباطل، ويمحو الجهلَ، ويَهدي العقل، ويُنير الطريق!.

لستَ مجنونًا لأنك على هُدًى من اللَّه، وعلى نورٍ من ربِّك، وعلى ثقةٍ من منهجك، وعلى بيِّنةٍ من دينك، وعَلَى رُشدٍ منْ دعوتك، صانك اللَّهُ من الجنون، بل عندك كلُّ العقل، وأكملُ الرُّشد، وأتمُّ الرأي، وأحسنُ البصيرة، فأنت الذي يَهتدِي بك العقلاء، ويَستضيءُ بحكمتك الحكماء، ويَقتدي بك الراشدُون المهديُّون.

كَذَبَ وافترىٰ مَن وَصَفَك بالجنون، وقد ملأت الأرضَ حِكمةً، والدنيا رَشَدًا، والعالَمَ عَدْلاً، فأين يُوجد الرَّشَدُ إلاَّ عندك؟ وأين تكونُ الحكمةُ إلاَّ لديْك؟ وأين تحِلُّ البَرَكة إلا معك؟ أنت أعقلُ العقلاء، وأفضلُ النُّبلاء، وأجلُّ الحكماء.

كيف يكونُ محمدٌ مجنونًا، وقد قدَّم للبشرية أحسنَ تراثٍ على وجهِ

الأرض، وأهدَىٰ للعالَم أجلَّ تَرِكةٍ عَرَفها الناس، وأعطىٰ الكونَ أبركَ رسالةٍ عرفها العقلاء؟!..

أخوك عيسى دعَا مَيْتًا فقامَ لهُ وأنتَ أَحْيَيْت أجيالاً مِن الرِّمَمِ[1]

* ﴿ **وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيرَ مَمْنُونٍ** ﴾ [القلم: ٣]:

إن لك لأجراً دائمًا موصولاً، لا ينقطع ولا ينتهي، أجراً عند ربك الذي أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم.

هذا الأجر العظيم لا ينقطع ما تردَّد نَفَسٌ في جَنْبِ مسلمٍ يعيشُ في دار الدنيا، والداعي إلىٰ الخير له مِثلُ أَجْرِ مَنِ اتَّبعه، فكيف ينقطعُ أجرُ رسول اللَّه ﷺ وله مِثلُ أجورِ ثُلُثَيْ أهلِ الجنة؟! فـ «**أهلُ الجنَّة مئةٌ وعشرون صفًّا، أمتي منهم ثمانون صفًّا**»[2]، كما قال ﷺ.

فأيُّ إيناسٍ وتَسريةٍ وتعويضٍ فائضٍ غامرٍ عن كلِّ حرمانٍ وعن كلِّ جَفْوةٍ وعن كلِّ بُهتانٍ يَرميه به المشركون!! وماذا فَقَد مَن يقول له ربُّه: ﴿ **وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيرَ مَمْنُونٍ** ﴾؟ في عطفٍ وفي مَوَدَّةٍ وفي تكريم.

* ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤]:

❑ قال ابن عباس ومجاهد: «لَعلَىٰ دينٍ عظيم، لا دينَ أحبُّ إليَّ ولا أرضىٰ عندي منه، وهو دين الإسلام».

❑ وقال الحسن: «هو آدابُ القرآن».

❑ وقال قتادة: «هو ما كان يأمرُ به من أمر اللَّه، وينهىٰ عنه مِن

(١) «محمد ﷺ كأنك تراه» (ص٦٨-٦٩).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد والحاكم والطبراني وأبو يعلىٰ والبزار.. وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

نَهيِ اللَّه، والمعنىٰ: إنك لعلىٰ الخُلُق الذي آثرك اللَّهُ به في القرآن»(١) .

● وفي «الصحيحين» أن هشامَ بنَ حكيم سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول اللَّه ﷺ، فقالت: «كان خُلُقه القرآن».. فقال: «لقد هَمَمْتُ أن أقومَ ولا أسألَ شيئًا»(٢) .

وهذه من أعظمِ آياتِ نبوَّته ورسالتِه، لمن مَنَحه اللَّهُ فهمًا، فقد كانت أخلاقُ النبي ﷺ - وهي أزكىٰ الأخلاقِ وأشرفُها وأفضلُها -، مقتبَسةً من مِشكاةِ القرآن.

فترجمت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها - لكمالِ معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ، وحُسنِ تعبيرها - عن هذا كلِّهَ بقولها: «كان خلقُه القرآن»، وفَهِم هذا السائلُ لها عن هذا المعنىٰ، فاكتفىٰ به واشتفىٰ.

فإذا كانت أخلاقُ العباد، وعلومُهم، وإراداتُهم، وأعمالُهم مستفادةً من القلم وما يَسطُرون، وكان في خَلْق القلم والكتابة إنعامٌ عليهم وإحسانٌ إليهم، إذْ وَصَلوا به إلىٰ ذلك، فكيف يُنكِرون إنعامَه وإحسانَه علىٰ عبده ورسوله ﷺ الذي أعطاه أعلىٰ الأخلاق، وأفضلَ العلوم والأعمالِ والإراداتِ التي لا تهتدي العقولُ إلىٰ تفاصِيلها من غيرِ قلمٍ ولا كتابة؟! فهل هذا إلاَّ مِن أعظمِ آيات نُبُوَّته وشواهدِ صدق رسالته؟!.

* ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]:

تجيءُ الشهادةُ الكبرىٰ والتكريمُ العظيم، وتتجاوبُ أرجاءُ الوجود بهذا

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» لابن قيم الجوزية (٢٠٦-٢٠٩).

(٢) رواه مسلم (٢/ ٣٩٦) في صلاة المسافرين، باب: صلاة الليل والوتر.. وكذا أبو داود (١/ ٢٤٩) في الصلاة، باب: في صلاة الليل.

الثناء الفريد على النبي الكريم ﷺ، ويَثْبُتُ هذا الثناءُ العُلويُّ في صميم الوجود! ويَعجزُ كلُّ قلم، ويعجِزُ كلُّ تصورٍ عن وصفِ قيمة هذه الكلمة العظيمة من ربِّ الوجود، وهي شهادةٌ من اللَّه، في ميزان اللَّه، لعبد اللَّه، يقولُ له فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ومدلولُ هذا الخُلق العظيم هو ما عند اللَّه مما لا يبلغُ إلىٰ إدراك مَداه أحدٌ من العالمين!.

✍ ودلالةُ هذه الكلمةِ العظيمةِ علىٰ عظمةِ النبيِّ محمد ﷺ تَبْرُزُ مِن نواحٍ شتَّىٰ:

❑ تَبرزُ من كونها كلمةً من اللَّه الكبير المتعال، يُسجِّلُها في ضميرِ الكون، وتَثبُتُ في كِيانه، وتتردَّد في الملأ الأعلىٰ ما شاء اللَّه.

❑ وتبرزُ من جانبٍ آخَرَ في إطاقةِ محمد ﷺ لتلقِّيها، وهو يعلمُ من ربِّه هذا، قائلُ هذه الكلمة، ما هو؟ ما عظمتُه؟ ما دلالةُ كلماته؟ ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلمُ مَنْ هو إلىٰ جانبِ هذه العظمةِ المطلقةِ التي يُدرِكُ هو منها ما لا يُدرِكُه أحدٌ من العالمين.

إنَّ إطاقةَ محمدٍ ﷺ لِتَلَقِّي هذه الكلمةِ من ربِّه العظيم، وهو ثابتٌ لا يَنسحقُ تحت ضغطِها الهائل - ولو أنها ثناءٌ -، ولا تتأرجحُ شخصيته تحتَ وقعها وتضطرب.. تَلَقِّيه لها في طُمأنينة، وفي تماسُك، وفي توازن.. هو ذاتُه دليلٌ علىٰ عظمةِ شخصيته فوقَ كلِّ دليل.

ولقد رُويت عن عَظَمةِ خُلُقه في السيرة، وعلىٰ لسانِ أصحابِه رواياتٌ مُنَوَّعةٌ كثيرة، وكان واقعُ سيرته أعظمَ شهادةٍ مِن كُلِّ ما رُوِي عنه، ولكنَّ هذه الكلمةَ أعظمُ بدلالتها من كلِّ شيءٍ آخر، أعظمُ بصدورها عن العليِّ الكبير، وأعظمُ بتلقِّي محمدٍ لها وهو يَعلمُ مَنْ هو العليُّ الكبير، وبقائه

بعدها ثابتًا راسخًا مطمئنًا، لا يتكبَّر علىٰ العباد، ولا ينتفخُ، ولا يتعاظم، وهو الذي سَمِع ما سَمِع من العليِّ الكبير!.

واللَّهُ أعلم حيث يجعلُ رسالته، وما كان إلاَّ محمدٌ ﷺ - بعظمةِ نفسِه هذه - مَن يَحملُ هذه الرسالةَ الأخيرة بكلِّ عظمتها الكونيةِ الكبرىٰ، فيكون كُفئًا لها، كما يكونُ صورةً حيَّةً منها.

إنَّ هذه الرسالةَ من الكمال والجمال، والعظمة والشمول، والصدقِ والحقِّ، بحيث لا يَحملُها إلاَّ الرجلُ الذي يُثني عليه اللَّهُ هذا الثناء، فتُطيقُ شخصيتُه كذلك تلقِّي هذا الثناء، في تماسُكٍ وفي توازن، وفي طمأنينة؛ طمأنينةِ القلبِ الكبير الذي يَسَعُ حقيقةَ تلك الرسالةِ وحقيقةَ هذا الثناء العظيم.

إنَّ حقيقةَ هذه النفسِ من حقيقةِ هذه الرسالة، وإنَّ عَظَمة هذه النَّفْس من عظمة هذه الرسالة، وإن قَدْر رسول اللَّه ﷺ كقَدْر الإسلام لأَبعدُ من مَدَىٰ أيِّ مِجهر يملكُه بَشَر، وقُصارىٰ ما يَملكُه راصدٌ لعظمة هذه النفسِ أن يراها ولا يُحدِّد مداها، وأن يشيرَ إلىٰ مسارها دونَ أن يستطيعَ أن يحدد هذا المسار!.

ومرةً أخرىٰ يَجدُ المرءُ نفسَه مشدودًا للوقوفِ إلىٰ جوار الدلالة الضخمة لتلقِّي رسول اللَّه ﷺ لهذه الكلمةِ من ربِّه، وهو ثابتٌ راسخٌ متوازنٌ مطمئنٌّ الكيان.. لقد كان ﷺ - وهو بَشَر - يُثني علىٰ أحد أصحابه، فيهتز كِيانُ صاحِبه هذا وأصحابِه مِن وَقْعِ هذا الثناءِ العظيم.. وهو بَشرٌ وصاحبُه يَعلَمُ أنه بشر، وأَصحابه يُدرِكون أنه بَشر، إنه نبيٌّ نعم، ولكن في الدائرة المعلومة الحدود، دائرةِ البشرية ذاتِ الحدود.. فأمَّا هو فيتلقَّىٰ هذه

الكلمةَ من اللَّه، هو بخاصةٍ يعلمُ مَن هو اللَّه! هو يعلمُ منه ما لا يعلمُه سواه، ثم يصطبر ويتماسَكُ ويتلقَّىٰ ويَسير. . إنه أمرٌ فوقَ كلِّ تصوُّرٍ وفوقَ كلِّ تقدير!!! إنه محمد ﷺ - وحدَه - هو الذي يَرقَىٰ إلىٰ هذا الأُفق من العظمة. . إنه محمدٌ نبي اللَّه ﷺ - وحده - هو الذي يَبلغُ قمَّة الكمالِ الإنسانيِّ، إنه سيِّدُ البشر محمدٌ ﷺ - وحده - هو الذي يُكافئُ هذه الرسالةَ الكونيةَ العالميةَ الإنسانية، حتىٰ لتتمثَّل في شخصية حيَّة تمشي علىٰ الأرض في إهابِ إنسان. . إنه محمد ﷺ - وحده - الذي علم اللَّه منه أنه أهلٌ لهذا المقام، واللَّهُ أعلم حيث يجعلُ رسالته، وأعلن في هذه أنه علىٰ خُلُق عظيم، وأعلن في الأخرىٰ أنه - جلَّ شأنُه وتقدَّست ذاته وصفاته - يُصلِّي عليه هو وملائكتُه، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وهو - جل شأنُه - وحده القادرُ علىٰ أن يَهَبَ عبداً من عبادهِ ذلك الفضلَ العظيم.

* ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو الكسائي: (بِظَنين) بالظاء. . وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة (بضنين) بالضاد.

والمقصود هنا رسول اللَّه ﷺ.

لقد نَزَّه اللَّهُ رَسُولَيْه: المَلَكيَّ جبريلَ، والبشريَّ رسولَ اللَّه ﷺ عمَّا يُضَادُّ مقصودَ الرسالة من الكتمان الذي هو الضِّنَّة والبُخل، والتبديلُ، والتغييرُ الذي يُوجبُ التهمة، فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، فإنَّ الرسالةَ لا يتمُّ مقصودُها إلاَّ بأَمْرَين: أدائها من غير كتمان، وأدائها علىٰ

وجهها من غير زيادةٍ ولا نقصان.

والقراءتان كالآيتيْن، فتضمَّنت إحداهما ـ وهي قراءة الضاد ـ تنزيهَه عن البخل، فإن «الضَّنين» هو البخيل، يُقال: «ضَنِنتُ به، أضنُّ»، بوزن «بخِلت به أبخل» ومعناه.

◻ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس بخيلاً بما أنزل اللَّه».

◻ وقال مجاهد: «لا يضنُّ عليهم بما يعلم».

وأجمع المُفَسِّرون على أنَّ «الغيَب» ههنا: القرآن والوحي.

◻ وقال الفَرَّاء: «يقول تعالى: يأتيه غيَبُ السماء وهو منفوسٌ فيه، فلا يَضِنُّ به عليكم.. وهذا معنًى حسنٌ جداًّ، فإن عادةَ النفوسِ الشُّحُّ بالشيءِ النفيس، ولا سيَّما عمَّن لا يَعرفُ قَدْره، ويذمُّه ويذمُّ مَن هو عنده، ومع هذا فالرسولُ لا يبخلُ عليكم بالوحي الذي هو أنفسُ شيءٍ وأَجَلُّه».

◻ وقال أبو علي الفارسي: «المعنى: يأتيه الغيبُ فيُبيِّنه ويُخبرُ به ويُظهِرُه، ولا يَكتمُهُ كما يكتمُ الكاهنُ ما عنده، ويُخفيه حتى يأخذَ عليه حُلوانًا.

◻ وفيه معنًى آخر، وهو: أنه على ثقةٍ من الغيب الذي يُخبِرُ به، فلا يخافُ أن يَنتقضَ، ويظهرَ الأمر بخلافِ ما أخبر به، كما يَقعُ للكُهَّان وغيرهم مِمَّنْ يُخبر بالغيب، فإنَّ كَذِبَهم أضعافُ صِدقِهم، وإذا أَخْبَرَ أحدُهم بخبرٍ لم يكن على ثقةٍ منه، بل هو خائفٌ من ظهور كَذِبه، فإقدامُ هذا الرسول على الإخبار بهذا الغَيب العظيمِ واثِقًا به، مُقيمًا عليه، مُبْدِيًا له في كلِّ مَجْمع، ومُعِيدًا مُناديًا به علَى صِدْقه، مُجلِبًا به على أعدائه: مِن

أعظم الأدِلة عَلىٰ صِدْقه.

☐ وأمَّا قراءةُ من قرأ (بظنين) بالظاء، فمعناه: المُتَّهَم، يُقال: «ظننت زيدًا» بمعنىٰ: اتَّهَمْتُه، وليس من الظنِّ الذي هو الشعورُ والإدراك، فإن ذاك يتعَدَّىٰ إلىٰ مَفْعُولَيْن.

والمعنىٰ: وما هذا الرسولُ علىٰ القرآن بمُتَّهم، بل هو أمينٌ لا يَزيدُ فيه ولا يَنقُص؛ وهذا يدلُّ علىٰ أن الضميرَ يرجعُ إلىٰ محمد ﷺ؛ لأنه قد تقدم وَصفُ الرسولِ المَلَكيِّ بالأمانة، ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾، ثم قال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، أي: وما صاحبكم بمُتَّهم، ولا بخيل.

واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيَيْن:

أحدهما: أن الكُفَّار لم يُبَخِّلوُه، وإنما اتَّهموه، فنفيُ التُّهمةِ أَوْلَىٰ مِن نَفْي البُخل.

الثاني: أنه قال: ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾، ولو كان المرادُ البخلُ لقال: «بالغيب»؛ لأنه يُقال: فلان ضنين «بكذا»، وقلَّما يُقال: «علىٰ كذا».

☐ **قلتُ:** ويُرجِّحه أنه وَصَفه بما وَصَف به رسولَه المَلَكِيَّ من الأمانة، فنَفَىٰ عنه التُّهْمةَ كما وَصَف جبريلَ بأنه أمين.

ويُرجِّحه أيضًا أنه سبحانه نفىٰ أقسامَ الكَذِب كلَّها عمَّا جاء به من الغيب، فإن ذلك لو كان كذِبًا، فإمَّا أن يكونَ منه، أوْ ممَّن علَّمه، وإن كان منه، فإمَّا أن يكون تعمَّده أو لمْ يتعمَّدْه، فإن كان من مُعَلِّمه، فليس هو بشيطان رَجيم، وإن كان منه مع التَّعَمُّد فهو المُتَّهم ضدُّ الأمين، وإن كان عن غير تعمُّد فهو المجنون.. فنفىٰ سبحانه عن رسوله ﷺ ذلك كلَّه، وزكَّىٰ

سَنَد القرآن أعظمَ تزكية، فلهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥] ليس تعليمَ الشيطان، ولا يَقدِرُ عليه، ولا يحسُنُ منه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١١]، فنفىٰ فِعْلَه وابتغاءَه منهم، وقدرتَهم عليه.

وكلُّ مَن له أدْنىٰ خِبرةٍ بأحوالِ الشياطين والمجانين والمُتَّهَمِين، وأحوالِ الرُّسل يَعلمُ عِلْمًا لا يُمارِي فيه ولا يشك - بل عِلْمًا ضَرُورِيًّا كسائر الضروريَّات - منافاةَ أحدِهما للآخَر، ومضادَّته له، كمنافاةِ أحدِ الضدَّيْن لصاحبه، بل ظهورُ المنافاة بَيْن الأمْرَين للعقل، أَبْيَنُ من ظهورِ المنافاة بين النور والظلمة للبَصَر، ولهذا وبَّخ سبحانه مَن كَفَر بعد ظهور هذا الفَرْقِ المُبين بين دعوة الرُّسل ودعوة الشياطين، فقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]، قال أبو إسحاق: فأيَّ طريقٍ تسلكون أَبْيَنَ من هذه الطريق التي بَيَّنت لكم؟، وقال تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]، وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

فالأمر منحصرٌ في الحق والباطل، والهدىٰ والضلال[1] . . ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

***

(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (١١٤ - ١٣٠).

*** محمد رسول اللَّه ﷺ المُبَارَك :**

✍ بأبي هو وأمي . . هو المُبَارَك أينما كان . .

إذا نحنُ أَدْلَجْنـــا وأنت إمامُنـــا كفى المطـايـا طِيبُ ذكرِكَ حاديـا
وإنْ نحن أضَلَلْنا الطريقَ ولم نَجدْ ضيـــاءً كَفَانَا نورُ وجهك هاديا
وإني لأستــغْشِي وما بي غَشْـــوةٌ لَعَلَّ خَيَــالاً منك يَلْقَى خياليـــا

✍ كانت البركةُ فيه ومعه وعنده ﷺ :

◻ فكلامُه مبارك، يقول الكلمةَ المُوجَزَة، فتحملُ في طيَّاتها من العِبَرِ والعِظاتِ ما يَدْهَشُ لروعتها العقلُ حُسْنًا وبلاغةً، فلا أَبْدَعَ، ولا أروعَ، ولا أوْجَزَ، ولا أعجزَ من هذا الكلام الباهي الزاهي . .

كأَنَّهُ الروضُ حَيَّتـــهُ الصَّبـا سَحَرًا وزاره الغيـثُ فــازدانت خَمائـلُـهُ

◻ ويُلقِي الخُطبةَ، فيَجعلَ اللَّه فيها من النفع والتأثير والبركة ما يَبقىٰ صداهُ في الأجيال جِيلاً بعد جيل .

◻ والبركةُ في عمره ﷺ، فقد عاش ثلاثًا وعشرين سنةً في إبلاغ رسالته ليس إلاَّ، فكان في هذه الفترةِ الوجيزةِ من الفتحِ والنصرِ والنفعِ والعلمِ والإيمانِ والإصلاحِ ما لا يقومُ به غيرُه في قرونٍ ودهور، ففي ثلاثٍ وعشرين سَنةً فحسب، بلَّغ الرسالةَ، وأدَّىٰ الأمانة، وعلَّم القرآن، ونَشَرَ السُّنَّة، وقضىٰ علىٰ الكفر، وأسَّس دولةَ العدل، وأقام أعظمَ حضارةٍ راشدةٍ عَرَفَتها الإنسانية . . فسبحان مَن بارك في لحظاتِ عُمره ودقائقِ حياته . .

مرَّت سنينٌ بالسُّعـود وبالهنا فكأنها من حُـسنها أيـــامُ

● وبُورك له ﷺ في آثاره، فقد مرَّ بصاحبِ قَبْرَينِ يُعذَّبان، أحدُهما

كان لا يتنزَّهُ من البول، والآخرُ كان يَمشي بالنميمة بين الناس، فشَقَّ ﷺ عصًا خضراءَ كانت معه وغَرَسها على القبرين، وقال: «**أرجو أن يُخفَّفَ عنهما من العذابِ حتى تَيْبَسا**»(١) ، وهذا خاصٌّ به، ولا يكونُ إلاَّ له ﷺ، لِمَا جَعَلَ اللَّهُ فيه من البركة.

◻ ومَرِض عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه بالرمدِ يومَ خيبر، حتىٰ أصبحَ لا يَرىٰ شيئًا، فنَفَثَ عليه ﷺ، فأبصر ـ بإذنِ اللَّه ـ في الحالِ لبركةِ دعائِه ونَفْثِه ﷺ:

مَرِضَ الحبيبُ فـزرتُــــهُ ... فمَرِضتُ مِن خوفي عليهِ
وأتى الحبيــبُ يـَزورُنـي ... فشُــفيتُ من نظـري إليه

◻ وكان الجيشُ في الخندق ألفَ رجلٍ، قد بَلَغ بهم الجوعُ مبلغًا عظيمًا، فدعا جابرُ بنُ عبداللَّه الرسولَ ﷺ وثلاثةً معه علىٰ عَناقٍ من وَلَدِ الماعز ذَبَحها وشيءٍ من طعام الشعير، فدعا ﷺ الجيشَ جميعًا وسَبَقهم، ودعا علىٰ الطعام ونَفَث، ثم أدخلهم عَشَرَةً عَشَرة، فأكلوا جميعًا وشبِعوا جميعًا، وبَقِي الطعامُ بحاله، ووُزِّع علىٰ أهل المدينة، فما بَقِي بيتٌ إلاَّ دَخَله من ذلك الطعام. . فلا إله إلاَّ اللَّه! يا لها مِن معجزةٍ باهرةٍ وآيةٍ ظاهرة علىٰ صِدقِه وبركته ونبوَّته:

علوٌّ في الحياةِ وفي المماتِ ... بحقٍّ فيك كلُّ المعجــزاتِ
عليك تحيةُ الرحمن تَسرِي ... بتَبْــريكٍ غوادٍ رائحـــاتِ

◻ وسافر معه جيشٌ قِوامه ألفٌ وأربَعُمئةِ رجل، فانتهىٰ ماؤهم

(١) أخرجه البخاري (٢١٦، ٢١٨)، ومسلم (٢٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأشرفوا علىٰ الهلاك، وانقطعوا في البَيداء، فدعا ﷺ بقِرْبةٍ صغيرة فيها قليلٌ من ماء، فصبَّه علىٰ يده الشريفةِ الطاهرة المباركة، فثارت مِن بين أصابعه أنهارُ الماء، فملأ الناسُ أوعيتَهم وعَبَّؤُوا قِرَبَهم، وسَقَوا رواحلَهم، وشَرِبوا وتوضَّؤُوا، واغتسلوا جميعًا، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]. .

وأبيض يُستسقى الغمـــامُ بوجهه ... ثُمالُ اليتــامى عِصمةٌ للأرامـلِ

فحيًّا اللَّهُ ذاك الكفَّ الطاهرَ المباركَ الذي ما خان، ولا غشَّ، ولا غَدَر، ولا نَهَب، ولا سَلَب، ولا سَرَق ولا سَفَك. .

يــدٌ بيضــاءُ لو مُــدَّت بليـــلٍ ... عظيمِ الهـولِ أشرقَتِ الليـــالي

◻ وزار ﷺ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ رضي الله عنه وهو مريضٌ ملتهِبُ الجسم، فوضع يَدَه المباركةَ علىٰ صَدرِ سعد، فوجَدَ بَرْدَها كالثلجِ، فشُفِي بإذن اللَّه.

◻ يقول سعدٌ رضي الله عنه بعدَ سنواتٍ طويلة: «واللَّهِ لكأني أجدُ بَرْدَها الآنَ علىٰ صدري».

◻ ورَشَّ ﷺ بقيةَ وَضوئه علىٰ جابرِ بن عبداللَّه رضي الله عنهما وهو مريضٌ، فشُفي بإذنِ اللَّه، وحَلَق رأسه ﷺ بمِنًىٰ يوم النحر، فأعطىٰ شِقَّه الأيمنَ أبا طلحةَ الأنصاري، لأنَّ صَوتَه في الجيشِ كمئةِ فارسٍ جائزةً له، والنصفَ الآخَرَ وُزِّع علىٰ الناس، فكادوا يقتتلون عليه، فمنهم مَن حَصَل علىٰ شَعْرةٍ، ومنهم مَن تقاسَمَ هو وصاحبُه شَعرةً واحدة، ومنهم مَن كان يضعُ هذه الشعرةَ في الماءِ إذا أراد أن يشرب. .

جَعلتُ لعرَّافِ اليمــامةِ حُكْمَــه ... وعَرَّافِ نجد إنْ همــا شـفيـاني

فواللَّه مـا من رُقيــة يُعلِّمانها ولا شــربــة إلاَّ بـهـا سَـقـياني
فجئتُ إلى المعصـومِ حتى أعلَّنـي بشَـربةِ حــقٍّ من هــدًى وبيـانِ

◻ ومَسَح ﷺ رأسَ أبي مَحذورة وهو صغير، فأقسم أبو محذورة لا يُحلَقُ هذا الشعر الذي مسَّه كف الرسول ﷺ، فبقيَ طيلةَ حياتهِ حتى طال ودُفن معه.

◻ وكان الصِّبيانُ يأتونه ﷺ بآنيتِهم، فيضع كفَّه المباركَ في إناءِ الماءِ واللبن، فيجدون فيه البركةَ والشفاءَ بإذن اللَّه.

وقَصَصُ بركته لا تنتهي، وأحاديثُ معجزاته لا تنقضي، فهو المباركُ أينما حلَّ وأينما ارتحل، وهو الموفَّق أينما سار وأقام.

* ﴿إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾:

هذه السورةُ خالصةٌ لرسول اللَّه ﷺ - كسورة الضحىٰ، وسورة الشرح -، يُسَرِّي عنه ربُّه فيها، ويَعِدُه بالخير، ويُوعِدُ أعداءَه بالبَتْر.. وفيها من تثبيتِ اللَّهِ وتطمينه وجميل وَعدِه لنبيِّه ﷺ ما فيها، ومَرهوبُ وعيده لشانئه.

كذلك تَمْثُلُ حقيقةُ الهدىٰ والخير الإيمان، وحقيقةُ الضلال والشرِّ والكُفران.. الأولىٰ كثرةٌ وفَيضٌ وامتداد، والثانيةُ قِلَّةٌ وانحسارٌ وانبتار، وإنَّ ظَنَّ الغافلون غيرَ هذا وذاك.

نَزَلت هذه السورةُ تَمسحُ علىٰ قلبه ﷺ بالرَّوْح والنَّدىٰ، وتقرِّر حقيقةَ الخير الباقي الممتدِّ الذي اختاره له ربُّه، وحقيقةَ الانقطاعِ والبتر المُقدَّر لأعدائه.. وقد فسَّر رسولُ اللَّه ﷺ «الكوثر» بنهره في الجنة وذَكَر صِفَته.

● عن أنس ﷺ مرفوعًا: «نزلت عليَّ آنفًا سورةٌ»، فقرأ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ..﴾ السورة، قال: «هل تدرون ما الكوثر؟». قلنا: اللَّهُ ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهرٌ وَعَدَنيه ربِّي في الجنة، عليه حَوضٌ تَرِدُ عليه أمَّتي يومَ القيامة، آنيتُه عددُ نجومِ السماء، فيختلجُ العبدُ منهم فأقول: ربِّي إنه من أمتي!! فيُقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1] .

● وعنه مرفوعًا: «بينما أنا أسيرُ في الجنة إذا أنا بنهرٍ حافَّتاه قِبابُ الدُّرِّ المجوَّف، قلتُ: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاك ربُّك، فإذا طِيبُه ـ أو طِينُه ـ مِسكٌ أذفر»[2] .

● وعن ابن عمر ﷺ مرفوعًا: «هو نَهَرٌ في الجنة حافَّتاه من ذهبٍ يَجري على الدُّرِّ والياقوتِ، تربتُه أطيبُ من رِيحِ المِسك، وطَعمُه أحلى من العسل، وماؤه أشدُّ بياضًا من الثلج»[3] .

☐ ومن حديث عائشة ﷺ موقوفًا: «الكوثر نهرٌ بفِناء الجنة، شاطئاه

(١) أخرجه مسلم (٤٠٠)، (٤/ ١٨٠١) بدون الشاهد، وأبو داود (٤٧٤٧)، والنسائي في «السنن» (٩٠٤) وفي «التفسير» (٧٢٢)، وأبو عوانة (٢/ ١٢١، ١٢٢)، وأحمد (٣/ ١٠٢)، والحاكم (٢/ ٥٣٧)، وابن أبي شيبة (٣٤٠٩٧)، وهناد في «الزهد» (١٣٣)، وابن أبي عاصم (٧٦٤) ـ بدون الشاهد ـ، وأبو أحمد الحاكم في «شعار أصحاب الحديث» (٣٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (١٢٢، ١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٤، ٦٥٨١)، وأبو داود (٤٧٤٨ بنحوه)، والترمذي (٣٣٥٩، ٣٣٦٠)، وابن حبان (٦٤٤٠)، وأحمد (٣/ ١٦، ١٩١، ٢٠٧، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٨٩)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٢٣)، وأبو يعلى (٢٨٧٦، ٣١٨٦)، والطيالسي (١٩٩٢)، والآجري (٣٩٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦).

(٣) **حديث صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٣٦١)، وأحمد وابن ماجه، والدارمي =

درٌّ مجوَّف، وفيه من الأباريقِ والآنيةِ عددَ النجوم»[١] .

□ وعن ابن عباس ﷺ موقوفًا: «الكوثرُ: الخيرُ الكثير الذي أعطاه اللَّهُ إياه»[٢] .

□ قال الإمام ابنُ جرير الطبري بعد سَرْده للأقوال التي قيلت في «الكوثر»: «وأولىٰ هذه الأقوال بالصواب عندي، قولُ من قال: هو اسمُ النهر الذي أُعْطِيَه رسولُ اللَّه ﷺ في الجنة، وَصَفه اللَّهُ بالكثرة لعِظَمِ قَدْره.

وإنما قلنا: ذلك أَوْلَىٰ الأقوال في ذلك، لتتابُعِ الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ بأن ذلك كذلك».

وهذا الكوثرُ ـ نهرُ الجنة ـ هو مِن بينِ الخير الكثير الذي أُوتِيَه الرسولُ ﷺ، فهو كوثرٌ من الكوثر.. خَيرٌ كثير مُطلَقٌ فائضٌ غَزير.. غيرُ ممنوعٍ ولا مَبتور.. فإذا أراد أحدٌ أن يتتبعَ هذا الكوثرَ الذي أعطاه اللَّهُ لنبيِّه فهو واجدُه

= (٢/ ٣٣٧)، وابن أبي شيبة (٣٤٠٩٨)، والطبري (١٥/ ٣٢٠، ٣٢٤) وهناد في «الزهد» (١٣١، ١٣٢)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٣٤١)، والبيهقي في «البعث» (١٤٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦١٥) بلفظ «**الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدرِّ والياقوت، تُربتُه أطيب ريحًا من المِسكِ، وماؤهُ أحلى من العسل، وأشدُّ بياضًا من الثلج**».

(١) **موقوف وله حكم الرفع**: أخرجه البخاري (٤٩٦٥)، والنسائي في «التفسير» (٧٢٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٠٩٩)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٢٠)، وهنّاد في «الزهد» (١٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٦، ٦٥٧٨)، والنسائي في «التفسير» (٧٢٤)، والحاكم (٢/ ٥٣٧)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٢٠، ٣٢١)، وهنّاد في «الزهد» (١٤٠)، والبيهقي في «البعث» (١٣٩، ١٤١) ومرفوعًا بنحو حديث أنس برقم (١٤٠).

حيثما نظر أو تصوَّر:

◻ هو واجدُه في النبوَّة، في أنه رسولُ اللَّه ﷺ، وهو أفضلُ الرسل مكانةً عند ربِّه، وماذا فَقَدَ مَن وَجَدَ اللَّهَ؟.

◻ وهو واجدُه في هذا القرآن الذي نَزَل عليه، وسورةٌ واحدةٌ منه كوثرٌ لا نهايةَ لكثرته، وينبوعٌ ثَرٌّ لا نهايةَ لفَيضِه وغزَارته.

◻ وهو واجدُه في الملأِ الأعلىٰ الذي يُصلِّي عليه، ويُصلِّي علىٰ مَن يُصلِّي عليه في الأرض، حيث يقترنُ اسمُه باسمِ اللَّه في الأرض والسماء.

◻ وهو واجدُه في سُنَّتِه الممتدَّة علىٰ مَدَار القرون، في أرجاءِ الأرض، وفي الملايين بعدَ الملايين السائرة علىٰ أثره، وملايينِ الملايين منَ الألسنةِ والشِّفاه الهاتفةِ باسمه، وملايينِ الملايين من القلوب المُحبَّة لسيرته وذكراه إلىٰ يومِ القيامة.

◻ وهو واجدُه في الخير الكثيرِ الذي فاض علىٰ البشريَّة في جميعِ أجيالها بسببه وعن طريقه، سواءٌ مَن عَرَفوا هذا الخيرَ فآمنوا به، ومَن لم يَعرِفوه، ولكنه فاض عليهم فيما فاض.

◻ وهو واجدُه في مظاهرَ شتَّىٰ، ومحاولةُ إحصائها ضربٌ من تقليلها وتصغيرها! إنه الكوثر، الذي لا نهايةَ لفيضه، ولا إحصاءَ لعوارفه، ولا حدَّ لمدلوله، ومِن ثَمَّ تَرَكه النصُّ بلا تحديد، ليشملَ كلَّ ما يَكثُرُ من الخير ويَزيد.

*** وقفة:**

بدأت سورةُ الكوثر بأجودِ الجُود والعطاءِ لأشرف الخلائق، والمِنحةُ

بكلِّ خيرٍ يمكنُ أن يكونَ . . ﴿إنا﴾ محمولٌ على التعظيم، ففيه تنبيهٌ على عظمةِ العطيَّة؛ لأن الواهبَ هو مَلِكُ الملوك ـ عز وجل ـ . فقد أشعرت الآية بعِظَمِ الواهب، والموهوبِ له، والموهوب، فيا لها من نعمةٍ ما أعظمَها وما أجلَّها، ويا له من تشريفٍ ما أعلاه!!.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾، ولم يقلْ «آتيناك»؛ لأن «الإيتاء» أصلُه الإحضار وإن اشتُهر في معنى الإعطاء، والإيتاءُ يَحتملُ أن يكونَ واجبًا، وأن يكون تفضُّلاً، وأمَّا الإعطاء، فإنه بالتفضُّل أشبهُ، وإذا كان الكوثرُ في نفسه في غايةِ الكثرة، لكنه بصدوره من مَلِكِ الملوك يَزدادُ عظمةً وكمالاً . ولَمَّا كان كثيرُ الرئيس أكثرَ من كثيرِ غيره، فكيف بالمَلِك، فكيف بمَلِكِ الملوك، فكيف إذا أخرجه في صيغةِ مبالغة!! فكيف إذا كان في مَظهرِ العظمة!! فكيف إذا بُنيت الصيغة على «الواو» الذي له العلوُّ والغلبة!! فكيف إذا أتت أثرُ «الفتحة» التي لها مِثلُ ذلك ـ بَل أعظم ـ!! فكيف إذا صُدِّرت الجملةُ بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم!!.

أفاض عليه من كلِّ شيءٍ من الأعيان والمعاني من العلم والعمل وغيرهما من معادنِ الدارَين، والخيرِ الذي لا غاية له مما لا يدخلُ تحتَ الوصف، فاجتَمَع له أشرفُ العطاءِ من أكرم المُعطِين وأعظمِهم.

فقد اضمَحلَّ في جانب نعمةِ الكوثر الذي أُوتي كلُّ ما ذَكَره اللَّه تعالى في الكتاب من نعيمِ أهلِ الدنيا وتمكُّنِ مَن تمكَّن منهم، ولم يَقَعْ بعد هذه السورة ذِكرُ شيءٍ من نعيم الدنيا.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ . . لم يقل «سنعطيك» . . . فأتى بصيغة الماضي ليدلَّ على أن رسول اللَّه ﷺ كان مُويَّدًا عزيزًا مَرْعِيَّ الجانب

مَقْضِيَّ الحاجة، وحُكمُ اللَّهِ له بالعطاء كان حاصلاً في الأزل، وأنَّ الغنيَّ الحميدَ قد هيَّأ أسبابَ سعادةِ النبي ﷺ قبل دخوله في الوجود، فكيف يُهمِلُ أمرَه بعد وجودِه واشتغالِه على أكملِ وجهٍ بالعبودية وآدابها، زِدْ على ذلك أن الكريمَ إذا شَرَعَ في العطيَّة على سبيل التفضُّل لا يُبطِلُها، بل كلَّ يومٍ يَزيدُ فيها بمَنِّه وإحسانِه وكرمه، فتفضُّله غيرُ متناهٍ، وكرمُه غير متناهٍ، وإعطاؤه لنبيِّه وعبده محمد ﷺ دائمٌ يَزيدُ أبداً.

*** التشريفات العظيمة السَّنيَّة لخير البريَّة وسيِّد البشريَّة:**

✍ سورة «الكوثر» تتمَّةٌ لِما قبلها مِن سُورٍ كلُّها تشريفاتٌ سنيَّة من ربِّ البرية لسيِّد البشريَّة:

* فسورةُ «الضحى» كاملةٌ كلُّها لرسول اللَّه ﷺ:

أولها: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾ [الضحى: ٣].

وثانيها: ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ**﴾ [الضحى: ٤].

وثالثها: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾ [الضحى: ٥].

ثم خَتَمها بذِكر ثلاثةِ أحوالٍ من أحواله ﷺ فيما يتعلَّقُ بالدنيا، وهي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ**﴾ [الضحى: ٦-٨].

* وفي سورة «ألم نشرح» شرَّفه ﷺ بثلاثةِ أشياء:

أولها: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ [الضحى: ١].

وثانيها: ﴿**وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ**﴾ [الشرح: ٢].

وثالثها: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

❑ وشَرَّفَ اللَّه نبيَّه ﷺ في سورةِ «التين» بثلاثةِ أنواعٍ من التشريف:

أولها: أنه تعالىٰ أقسَمَ ببلدِه ﷺ.. وهو قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ٣].

وثانيها: أنه تعالىٰ أخبر عن خَلاصِ أُمَّتِه من النار.. وهو قوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التين: ٦].

وثالثها: وصولُ أمته إلىٰ الثواب.. وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

❑ ثم مَنَّ اللَّه الودودُ الكريمُ علىٰ نبيِّه العظيم بثلاثةِ أنواعٍ من التشريفات:

أولها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، أي: اقرأ القرآن علىٰ الخَلق مستعينًا باسم ربك.

وثانيها: أنه تعالىٰ قهر خَصْمَه بقوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧-١٨].

وثالثها: أنه خَصَّه ﷺ بالقُرْبىٰ التامةِ، وهو قوله: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

❑ وشرفه ﷺ في سورة «القدر» بليلة القَدْر التي لها ثلاثةُ أنواع من الفضيلة:

أولها: كونها خيراً من ألف شهر.

ثانيها: نزول الملائكة والرُّوحُ فيها.

وثالثها: كونُها سلامًا حتىٰ مَطْلَعِ الفجر.

❑ وشرَّفه ﷺ في سورة «لم يكن» بأنْ شَرَّف أمته بثلاثة تشريفات:

أولها: أنه خيرُ البرية.

وثانيها: أن جزاءَهم عند ربِّهم جنات.

وثالثها: رضي اللَّه عنهم.

❑ وشرفه ﷺ في سورة «إذا زلزلت» بثلاثة تشريفات:

أولها: قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، وذلك يقتضي أن الأرضَ تشهدُ يوم القيامة لأمته ﷺ بالطاعة والعبودية.

والثاني: قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]، وذلك يدلُّ علىٰ أنه تُعرضُ عليهم طاعتُهم، فيَحصلُ لهم الفرحُ والسرور.

وثالثها: قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، ومعرفةُ اللَّهِ لا شكَّ أنها أعظمُ من كلِّ عظيمٍ، فلا بدَّ وأن يَصِلوا إلىٰ ثوابها.

❑ ثم شرَّفه ﷺ في سورة «العاديات» بأن أقسم بخيلِ الغُزاة من أمته ﷺ، فوصفت تلك الخيل بصفاتٍ ثلاث: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ١-٣].

❑ ثم شرَّف أمته ﷺ في سورة «القارعة» بأمور ثلاثة:

أولها: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: ٦].

وثانيها: أنهم في عِيشة راضية.

وثالثها: أنَّهم يَرَون أعداءهم في نارٍ حامية.

□ ثم شرَّفه ﷺ في سورة «ألهاكم» بأن بَيَّن أن المُعرِضين عن دينه وشرعِه يصيرون معذَّبين من ثلاثة أوجه:

أولها: أنهم يَرَون الجحيم.

وثانيها: أنهم يَرَونها عين اليقين.

وثالثها: أنهم يُسألون عن النعيم.

□ ثم شرَّف أمته ﷺ في سورة «العصر» بأمور ثلاثة:

أولها: الإيمان ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وثانيها: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وثالثها: إرشاد الخلق إلىٰ الأعمال الصالحة، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

□ ثم شرَّفه في سورة «الهمزة» بأنْ ذَكَر أن مَن هَمَزَه ولَمَزَه فله ثلاثةُ أنواع من العذاب:

أولها: أنه لا ينتفع بدنيا ألبتة.. وهو قوله تعالىٰ: ﴿**يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلاَّ**﴾ [الهمزة: ٣ - ٤].

وثانيها: أنه يُنبَذُ في «الحُطمة»، ﴿**لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ**﴾

وثالثها: أنه يُغلَقُ عليه تلك الأبوابَ حتىٰ لا يَبقىٰ له رجاءُ الخروج، وهو قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ**﴾ [الهمزة: ٨].

□ ثم شرَّفه ﷺ في سورة «الفيل» بأن ردَّ كيدَ أعدائِه إلىٰ نَحرهم من ثلاثة أوجه:

أولها: جعل ﴿كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢].

وثانيها: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣].

وثالثها: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥].

□ ثم شرَّفه ﷺ في سورة «قريش» بأنه تعالىٰ راعىٰ مصلحةَ أسلافه ﷺ من ثلاثة أوجه:

أولها: جعلهم مؤتلِفين متوافِقِين ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١].

وثانيها: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قريش: ٤].

وثالثها: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤].

□ وشرَّفه ﷺ في سورة «الماعون» بأن وَصَفَ المكذِّبين بدينه بثلاثةِ أنواعٍ من الصفات المذمومة:

أولها: الدناءة واللؤم، وهو قوله تعالىٰ: ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٢-٣].

وثانيها: تَرْكُهم تعظيمَ الخالق، وهو قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٥-٦].

وثالثها: تركهم نفعَ الخلق، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧].

فهذه مناقبُ متكاثرة، كلٌّ واحدةٍ منها أعظمُ من مُلْكِ الدنيا بحذافيرها.

المَقامةُ النبويَّة لعائضِ القَرْني ـ للَّه دَرُّه ـ

◘ قال الشيخ عائض القرني بأسلوبه الرقراق الذي يَسيلُ منه دَمعُ كلِّ مُشتاق إلى سيد الرسل عظيمِ الأخلاق ﷺ:

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَا عَلَمَ الهُدَى
واسْتَبْشَرَت بِقُدُومِكَ الأَيَّامُ
هَتَفَتْ لَكَ الأَرْوَاحُ مِنْ أَشْوَاقِهَا
وَازَيَّنَتْ بِحَدِيثِكَ الأَقْلامُ

ما أحسنَ الاسمَ والمسمَّى! وهو النبيُّ العظيم في سورة «عمَّ»، إذا ذَكَرتُه هَلَّت الدموعُ السواكب، وإذا تذكرتُه أقبلت الذكرياتُ من كلِّ جانب..

وَكُنْتُ إذَا ما اشْتَدَّ بِي الشَّوْقُ وَالْجَوى
وَكَادَتْ عُرَى الصَّبْرِ الجَمِيلِ تَفْصِمُ
أُعَلِّلُ نَفْسِي بِالتَّلاقِي وَقُرْبِهِ
وَأُوهِمُهَا لَكِنَّهَا تَتَوَهَّمُ

المتعبِّدُ في غارِ حراء، صاحبُ الشريعة الغرَّاء، والمِلَّةِ السَّمْحاء، والحنيفيةِ البيضاء، وصاحبُ الشفاعة والإسراء، له المقامُ المحمود، واللواءُ المعقود، والحوضُ المورود، هو المذكورُ في التوراة والإنجيل، وصاحبُ الغُرَّة والتَّحجيل، والمؤيَّدُ بجبريل، خاتمُ الأنبياء، وصاحبُ صفوةِ الأولياء، إمامُ الصالحين، وقدوةُ المفلحين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

السَّـــمَاوَاتُ شَـــيِّقَاتٌ ظِـمَــــاءُ
وَالْفَـضَـــا والنُّجُـــومُ والأَضْـــوَاءُ
كُلُّهَـــا لَهْـفَـــةٌ إِلَى العَـلَـمِ الْهَـــا
دِي وَشَـــوْقٌ لِذَاتِـــهِ وَاحْتِـفَــــاءُ

تُنظَم في مَدحه الأشعار، وتُدبَّجُ فيه المَقاماتُ الكبار، وتُنقل في الثناء عليه السِّيَرُ والأخبار، ثم يَبقىٰ كنزًا محفوظًا لا يُوفِّيه حقَّه الكلام، وعَلَمًا شامخًا لا تُنصِفُه الأقلام، إذا تحدَّثْنا عن غيره عَصَرْنا الذكريات، وبَحَثْنا عن الكلمات، وإذا تَحدَّثْنا عنه تَدَفَّقَ الخاطرُ، بكل حديث عاطر، وجاش الفؤادُ بالحبِّ والوِداد، ونَسِيَتِ النفسُ همومَها، وأغفَلَتِ الروحُ غمومَها، وسَبَّح العقلُ في ملكوتِ الحُبِّ، وطاف القلبُ بكعبةِ القرب، هو الرمزُ لكل فضيلة، وهو قُبَّةُ الفَلَكِ خِصالٌ جميلة، وهو ذُروةُ سَنامِ المجدِ لكلِّ خلالٍ جليلة.

مرحبًا بالحبيب والأريب والنجيب، الذي إذا تحدَّثتُ عنه تزاحمت الذكريات، وتسابقت المشاهدُ والمقالات.

صلىٰ اللّه علىٰ ذاك القدوة ما أحلاه! وسَلَّمَ اللّهُ ذاك الوجهَ ما أبهاه! وبارك اللّهُ علىٰ ذاك الأُسوةِ ما أكمَلَه وأعلاه! علَّمَ الأُمةَ الصِّدقَ وكانت في صحراءِ الكذبِ هائمة، وأرشَدَها إلىٰ الحقِّ وكانت في ظُلماتِ الباطل عائمة، وقادها إلىٰ النور وكانت في دياجيرِ الزور قائمة..

وَشَبَّ طِفلُ الْهُدَى الْمَحْبُوبُ مُتَّشِحًا
بِالْخَيْـــرِ مُتَّـزِرًا بِالنُّورِ وَالنَّـــارِ

فِي كَفِّهِ شُـعْلَةٌ تَهْـدِي وَفِي دَمِـــه
عَقِـيــدَةٌ تَتَحَــدَّى كُلَّ جَبَّـــارِ

كانت الأمةُ قبلَه في سُباتٍ عميق، وفي حضيضٍ من الجهل سحيق، فبَعَثه اللَّهُ علىٰ فترةٍ من المرسلين، وانقطاعٍ من النبيين، فأقام اللَّهُ به الميزان، وأنزل عليه القرآن، وفَرَّق به الكفرَ والبهتان، وحُطِّمت به الأوثان والصلبان، للأمم رموزٌ يُخطؤون ويُصيبون، ويُسدِّدون ويَغلِطون، لكنَّ رسولَنا ﷺ معصومٌ من الزلل، محفوظٌ من الخلل، سليمٌ من العلل، عُصم قلبُه من الزيغ والهوىٰ، فما ضَلَّ أبداً وما غوىٰ، إنْ هو إلاَّ وحيٌ يوحىٰ.

للشعوب قاداتٌ لكنهم ليسوا بمعصومين، ولهم ساداتٌ لكنهم ليسوا بالنبوة مَوسومين، أمَّا قائدُنا وسيِّدُنا فمعصومٌ من الانحراف، محفوفٌ بالعناية والألطاف.

قُصارىٰ ما يَطلبُه ساداتُ الدنيا قصورٌ مشيَّدة، وعساكرُ تَرفعُ الولاءَ مؤيَّدة، وخُيولٌ مُسَوَّمة في مُلكِهم مُقيَّدة، وقناطيرُ مقنطَرةٌ في خزائنهم مخلَّدة، وخَدَمٌ في راحتهم مُعَبَّدة.

أما محمَّدٌ ﷺ فغايةٌ مطلوبه، ونهايةٌ مرغوبه، أن يُعبَدَ اللَّهُ فلا يُشركُ معه أحد؛ لأنه فَردٌ صمد، لم يَلِدْ ولم يُولد، ولم يكن له كفواً أحد.

يسكنُ بيتًا من الطين، وأتباعُه يجتاحون قصورَ كسرىٰ وقيصر فاتحين، يَلبسُ القميصَ المرقوع، ويَربطُ علىٰ بطنِه حَجَرين من الجوع، والمدائنُ تُفتح بدعوته، والخزائنُ تُقسم لأمته..

إِنَّ الْبَرِيَّـــةَ يَـــوْمَ مَبْعَثِ أَحْمَـــدَ
نَظَـــرَ الإِلَـهُ لَهَا فَبَـــدَّلَ حَالَـهَـا

بَلْ كَرَّمَ الإِنْسَانَ حِينَ اخْتَارَ مِنْ
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ نَجْمَهَا وَهِلالَهَا
لَبِسَ الْمُرَقَّعَ وَهْوَ قَائِدُ أُمَّةٍ
جَبَتِ الكُنُوزَ فَكَسَّرَتْ أَعْلامَهَا
لَمَا رَآهَا اللَّهُ تَمْشِي نَحْوَهُ
لا تَبْتَغِي إِلاَّ رِضَاهُ سَعَى لَهَا

ماذا أقولُ في النبيِّ الرسول؟ هل أقولُ للبَدْر: حُيِّيتَ يا قمرَ السماء؟ أم أقولُ للشمس: أهلاً يا كاشفةَ الظلماء؟ أم أقولُ للسحاب: سَلِمْتَ يا حامل الماء؟!..

يَا مَنْ تَضَوَّعَ بِالرِّضْوَانِ أَعْظُمُهُ
فَطَابَ مِنْ طِيبِهِ تِلْكَ الْقَاعُ وَالأَكَمُ
نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ
فِيهِ العَفَافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ

اسلُكْ معه حيثُما سَلَك، فإنَّ سُنَّته سفينةُ نوحٍ، مَن رَكِب فيها نجا، ومَن تَخلَّف عنها هَلَك، نَزَل بَزُّ رسالته في غارِ حراء، وبِيع في المدينة، وفُصِل في بدر، فلَبِسه كلُّ مؤمنٍ، فيا سعادةَ مَن لَبِس، ويا خَسارةَ من خلَعه فقد تَعس وانتكَس، إذا لم يكنِ الماءُ مِن نهرِ رسالته فلا تشربْ، وإذا لم يكنِ الفَرَسُ مُسوَّمًا على علامتِه فلا تركبْ، بلالُ بنُ رباح صار باتِّباعِهِ سَيِّداً بلا نَسَب، وماجداً بلا حَسَب، وغنيًّا بلا فِضةٍ ولا ذَهَب، أبو لهب عمُّه لما عصاه خَسِر وتبَّ، سيَصلى ناراً ذات لهب..

الْفُرْسُ وَالرُّومُ وَالْيُونَـــانُ إِنْ ذُكِرُوا
فَعِـنْـدَ ذِكْرِكَ أَسْـــمَالٌ عَلَى قَـــزَمِ
هُمْ نَمَّقُوا لَوْحَـــةً بِالرِّق هَائِمَـــةً
وَأَنْتَ لَوْحُـــكَ مَحْـفُـوظٌ مِنَ التُّـهَمِ

وإنك لَتهدي إلى صراط مستقيم، وإنك لعلى خلق عظيم، وإنك لعلى نهجٍ قويم، ما ضَلَّ، وما زلَّ، وما ذلَّ، وما غَلَّ، وما مَلَّ، وما كَلَّ.

فما ضَلَّ؛ لأن اللَّهَ هاديه، وجبريلَ يُكلِّمُه ويناديه.

وما زَلَّ؛ لأن العِصمة ترعاه، واللَّهُ أيَّده وهداه.

وما ذَلَّ؛ لأن النصرَ حليفُه، والفوز رديفه.

وما غَلَّ؛ لأنه صاحبُ أمانة، وصيانة، وديانة.

وما مَلَّ؛ لأنه أُعطي الصبر، وشُرِح له الصدر.

وما كَلَّ؛ لأن له عزيمةً، وهمةً كريمة، ونفسًا طاهرةً مستقيمة..

كَأَنَّـكَ فِي الكِتَـــابِ وَجَـــدت لاءً
مُحَرَّمَـــةً عَلَيْـــكَ فَـــلا تَحِـــلُّ
إِذَا حَـضَرَ الشِّـــتَاءُ فَأَنْـتَ شَـمْسٌ
وَإِنْ حَـــلَّ المصيـــفُ فَـأَنْتَ ظِـــلُّ

صلى اللَّه عليه وسلم، ما كان أشرحَ صدرَه! وأرفَعَ ذِكرَه! وأعظمَ قَدْرَه! وأنفَذَ أمرَه! وأعلى شرَفَه! وأربح صَدَقَةَ مَن آمَنَ به وعرفه! ومع سَعَةِ الفِناء، وعظم الآناء، وكرم الآباء، فهو محمدٌ الممجَّد، كريمُ المَحْتِد، سخيُّ اليد، كأنَّ الألسِنةَ والقلوبَ ريضت على حُبِّه، وأَنِست بقُربه، فما تنعقدُ إلاَّ

تنعقدُ إلاَّ علىٰ وُدِّه، ولا تَنطقُ إلاَّ بحمده، ولا تَسبحُ إلاَّ في بحرِ مجده..

نُــورُ الْعَــرَارَةِ نُــــورُه وَنَسِــيمُــهُ
نَشْـــرُ الْخُزَامَى فِي اخْـضِــرَارِ الآسِي
وَعَلَيْــهِ تَــاجُ مَحَبَّـــةٍ مِنْ رَبِّـــــه
مَا صِيـغَ مِنْ ذَهَـبٍ وَلا مِنْ مَاسِــــي

إنَّ للفِطَرِ السليمة، والقلوبِ المستقيمة حُبًّا لمنهاجه، ورغبةً عارمةً لسلوك فِجاجه، فهو القدوةُ الإمام، الذي يُهدىٰ به مَنِ اتبع رضوانَه سُبُلَ السلام.

صلىٰ اللَّه عليه وسلم، عَلَّم اللسانَ الذِّكر، والقلبَ الشكر، والجسدَ الصبر، والنفسَ الطُّهْر، وعَلَّم القادةَ الإنصاف، والرعيةَ العفاف، وحَبَّبَ للناس عَيشَ الكفاف، صَبَر علىٰ الفقر؛ لأنه عاش فقيراً، وصَبَر علىٰ جُموعِ الغنىٰ لأنه مَلَك مُلكًا كبيراً، بُعِث بالرسالة، وحكم بالعدالة، وعَلَّم من الجهالة، وهَدَىٰ من الضلالة، ارتقىٰ في درجاتِ الكمال حتىٰ بَلَغَ الوسيلة، وصَعِد في سُلَّمِ الفضل حتىٰ حاز كلَّ فضيلة..

أَتَــاكَ رَسُولُ الْمَكْرُمَـــاتِ مُسْـــلِّمًا
يُرِيـــــدُ رَسُـــولَ اللَّهِ أَعْـظَمَ مُتَّــقِي
فَأَقْبَلَ يَسْـــعَى فِي الْبِســـاطِ فَمَا دَرَى
إِلَى الْبَحْرِ يَسْعَى أَمْ إِلَى الشَّمْسِ يَرْتَقِي

هذا هو النورُ المبارَكُ يا مَن أبصر، هذا هو الحُجَّةُ القائمةُ يا من أدبر، هذا الذي أنذَر وأعذَر، وبَشَّر وحَذَّر، وسَهَّلَ ويَسَّر، كانت الشهادةُ صعبةً

فسهَّلَها من أتباعه مُصعَب، فصار كلُّ بطلٍ بعدَه إلىٰ حِيَاضِهِ يرغب، ومِن مَوْرِدِهِ يشرب، وكان الكذبُ قبلَه في كلِّ طريق، فأباده بالصديق، مِن طُلاَّبه أبو بكر الصديق، وكان الظُّلمُ قبلَ أن يُبعثَ متراكِمًا كالسحاب، فزحزحه بالعدلِ من تلاميذِه عمرُ بن الخطاب، وهو الذي ربَّىٰ عثمانَ ذا النورين، وصاحبَ البيعتين، والمتصدِّقَ بكلِّ ماله مرَّتين، وهو إمامُ عليٍّ حَيْدَرة، فكم من كافرٍ عقَرَه، وكم من مُحارِبٍ نَحَره، وكم من لواءٍ للباطل كَسَره، كأن المشركين أمامَه حُمُرٌ مستنفِرة، فَرَّت من قسورة!! . .

إِذَا كَانَ هَذَا الجِيلُ أَتْبَاعَ نَهْجِهِ
وَقَدْ حَكَمُوا السَّادَاتِ فِي البَدْوِ وَالحَضَرْ
فَقُلْ كَيْفَ كَانَ الْمُصْطَفَى وَهْوَ رَمْزُهُمْ
مَعَ نُورِهِ لا تُذْكَرُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرْ!

كانت الدنيا في بلابلِ الفتنة نائمة، في خَسارةٍ لا تعرفُ الربحَ وفي اللهوِ هائمة، فأذَّن بلالُ بن رباح، بـ«حيَّ علىٰ الفلاح»، فاهتزَّتِ القلوب، بتوحيد علاَّمِ الغيوب، فطارت المُهَجُ تطلبُ الشهادة، وسَبَّحَتِ الأرواحُ في مِحراب العبادة، وشَهِدَتِ المعمورةُ لهم بالسيادة . .

كُلُّ المشَاربِ غَيْرُ النِّيلِ آسِنَةٌ
وَكُلُّ أَرْضٍ سِوَى الزَّهْرَاءِ قِيعَانُ
لا تُنْحَرُ النَّفْسُ إِلاَّ عِنْدَ خَيْمَتِهِ
فَالْمَوْتُ فَوْقَ بَلاطِ الحُبِّ رِضْوَانُ

أرسله اللَّهُ علىٰ الظَّلماء كشمسِ النهار، وعلىٰ الظمأ كالغَيث المِدرار،

فهزَّ بسيوفه رؤوسَ المشركين هزًّا؛ لأن في الرؤوس مساميرَ اللات والعزىٰ، عَظُمت بدعوته المِنَن، فإرسالُه إلينا أعظَمِ منَّة، وأحيا اللَّهُ برسالته السُّنن، فأعظمُ طريقٍ للنجاة اتباعُ تلك السنة.. تعلَّم اليهودُ العلمَ فعطَّلوه عن العمل، ووقعوا في الزيغ والزلل، وعَمِل النصارىٰ بضلال، فعَملهم عليهم وبال، وبُعث عليه الصلاة والسلام بالعلم المفيد، والعملِ الصالح الرشيد..

أَخُــوكَ عِيسَـى دَعَا مَيْتًـا فَـقَامَ لَهُ
وَأَنْتَ أَحْيَـيْتَ أَجْـيَالاً مِـنَ الرِّمَـمِ
أَنْصِـتْ لِمِيـمِـيَّـةٍ مِــنْ أُمَــمٍ
مِـدَادُهَـا مِــنْ مَعَانِي «نُـون وَالْقَلَمِ»

***

سَالَتْ قَرِيحَــةُ صَبٍّ فِي مَحَبَّتِـكُم
فَيْضًا تَدَفَّـقَ مِثْلَ الهَاطِـلِ العَمَـمِ
كَالسَّيْلِ كَاللَّيْلِ كَالْفَجْرِ اللَّحُـوحِ غَدا
يَطْوِي الرَّوَابِي وَلا يَلْـوِي عَلَى الأَكَـمِ
أَجَشَّ عَلَيَّ كَالرَّعْدِ فِي لَيَالِي السُّعُود وَلا
يُشَابِهُ الرَّعْــدَ فِي بَطْشٍ وَفِي غَشَـمِ
كَدَمْـعِ عَيْنِي إِذَا مَا عِشْــتُ ذِكْرَكُمْ
أَوْ خَفَقَ قَلْبٌ بِنَــارِ الشَّوْقِ مُضْطَرَمِ
يَزْرِي بِنَابِغَــةِ النُّعْمَــانِ رَوْنَقُــهَـا
وَمِنْ زُهَيــر وَمَاذَا قَالَ فِي هَــرِمِ؟

دَعْ سَيْفَ ذِي يَزن صَفْحًا وَمَادحَــهُ
وتُبَّــعًا وبَنِــي شــدَّاد فِي إرَمِ
وَلا تَعْــرُجْ عَلَى كِسْــرَى وَدَوْلَتِــه
وَكُلِّ أصيــدَ أَوْ ذِي هَــالَةٍ وَكَمِــي
وانْسَــخْ مَــدَائــحَ أَرْبَابِ المَديحِ كمَا
كَانَتْ شــريعَتُــه نَسْــخًا لِدِينِهِم
رَصِّعْ بِهَا هَامَـــةَ التَّـاريخِ رَائِعَـــةً
كَالتَّــاجِ فِي مَفْــرقٍ بِالمَجْــدِ مُرْتَسِمِ
فَالْهَــجْرُ وَالوَصْلُ وَالدُّنْيَا وَمَا حَمَلَت
وَحُبُّ مَجْنُــونِ لَيْلَى ضَـلَّةٌ لَعَمِي
دَعِ المَغَـــانِي وَأَطْـــلالَ الحَبِيب وَلا
تَلْمَحْ بعَيْنَيْــكَ بَرْقَــا لاحَ فِي أَضَــمِ
وَأُنْسُ الخَمَـــائِــلِ وَالأَفْنَــانُ مَائِلَةٌ
وَخَيْمَـــةٌ وَشُوَيْهَــاتٌ بِــذِي سَلَمِ
هُنَا ضِيَــاءٌ هُنَا رِيٌّ هُنَا أَمَـــلٌ
هُـنَا رَوَاءٌ هُـنَا الرِّضْوَانُ فَاسْـتَلِمِ
لَوْ زُيِّنَتْ لامرئِ القَيْسِ انْزَوى خَجَلاً
وَلَوْ رَآهَا لَبِيــدُ الشِّــعْرِ لَمْ يَقُــمِ
مِيــمِيَّــةٌ لَوْ فَتَى بُوصِيرَ أَبْصَرَهَــا
لَـعَــوَّذوه بِرَبِّ الحِــلِّ وَالحَـــرَمِ

سَلْ شِــعْرَ شَــوْقِي أَيَرْوِي مِثْلَ قافِيَتي
أَوْ أَحْمَدَ بن حُسَيْنٍ فِي بَنِــي حكَمِ
مَا زَارَ سُــوقَ عُكَاظ مِثْــلُ طَلْعَتِهَا
هَامَتْ قُلُوبٌ بِهَا مَنْ أَهْدَيْتُهُ كَلِمِي
أُثْنِي عَلَى مَنْ؟ أَتَـدْرِي مَنْ أُبَجِّـلُـهُ؟
أَمَــا عَلِمْتَ بِمَنِ اهْتَدَيْتُــهُ كَلِمِــي
فِي أَشْجَعِ النَّاسِ قَلْبًا غَيْــرِ مُنْتَقِــمِ
وَأَصْدَقِ الخَلْقِ طُرًّا غَيْــرِ مُتَّهَــمِ
أَبْهَى مِنَ الْبَدْرِ فِي قَلْبِ التَّمَامِ وَقُلْ
أَسْخَى مِنَ البَحْــرِ بَلْ أَرْسَى مِنَ العلمِ
أصْفَى مِنَ الشَّمْسِ فِي نُطْقٍ وَمَوْعِظَةٍ
أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ فِي حُكْمٍ وفِي حِكَمِ
أَغَرُّ تُشْرِقُ مِنْ عَيْنَيْهِ مَلْحَمَةٌ
مِنَ الضِّيَــاءِ لِتَجْــلُو الظُّلْمَ والظُّلَمِ
فِي هِمَّةٍ عَصَفَتْ كَالدَّهْرِ واتَّقَدَت
كَمْ مَزَّقَتْ مِنْ أَبِي جَهْلٍ وَمِنْ صَنَــمِ
أَتَى اليَتِيمُ أَبُو الأَيْتَــامِ فِي قَدَرٍ
أَنْهَى لأُمَّتِــهِ مَــا كَانَ مِنْ يُتْــمِ
مُحَــرِّرُ العَقْــلِ بَانِي المَجْدِ بَاعِثُنَــا
مِنْ رَقْــدَةٍ فِي دِثَــارِ الشِّرْكِ وَاللَّمَمِ

بِنُـورِ هَدْيِـكَ كَحَّلْنَـا مَحَـاجِرَنَـا
لَمَّـا كَتَبْنَـا حُرُوفًا صُغْتُـهَـا بِـدَمِ
مَنْ نَحنُ قَبْلَكَ إلاَّ نُقْطَـةٌ غَـرِقَتْ
فِي اليَمِّ بَلْ دَمْعَـةٌ خَرْسَـاءُ فِي القِدَمِ
أَكَـادُ أَقْتَلِعُ الآهَـاتِ مِنْ حُـرَقِي
إِذَا ذَكَرْتُـكَ أَوْ أَرْتَـاعُ مِنْ نَـدَمِي
لَمَّا مَدَحْتُكَ خِلْتُ النَّجْـمَ يَحْمِلُنِي
وَخَاطِرِي بِالسَّنَا كَالجَيْشِ مُحْتَـدِمِ
شَجَّعْتُ قَلْبِي أَنْ يَشْـدُو بِقَافِيَـةٍ
فِيكَ القَرِيضُ كَوَجْـهِ الصُّبْحِ مُبْتَـسِمِ
صَهْ شِـكِسْبِيرُ مِنَ التَّهْرِيـجِ أَسْعَدَنَا
عَنْ كُلِّ إِلْيَـاذَةٍ مَا جَـاءَ فِي الحِكَمِ
الفُرْسُ وَالرُّومُ وَالْيُونَـانُ إِنْ ذُكِرُوا
فَعِنْدَ ذِكْرَاهُ أَسْـمَالٌ عَلَى قَـزَمِ
هُمْ نَمَّقُـوا لَوْحَـةً لِلرِّقِّ هَائِمَـةً
وَأَنْتَ لَوْحُكَ مَحْفُـوظٌ مِنَ التُّهَمِ
أَهْدَيْتَنَا مِنْبَـرَ الدُّنْيَـا وَغَـارَ حِـرَا
وَلَيْلَةَ القَـدْرِ وَالإِسْـرَاءَ لِلْقِمَـمِ
وَالحَوْضَ وَالكَوْثَـرَ الرَّقْـرَاقَ جِئْتَ بِهِ
أَنْتَ المُزَّمِّلُ فِي ثَوْبِ الهُـدَى فَقُمِ

الْكَوْنُ يَسْأَلُ وَالأَفْــلاكُ ذاهــلَةٌ
وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ بَيْنَ الــلاء والنِّعَـمِ
وَالدَّهْــرُ مُخْتَلِقٌ وَالجَــوُّ مُبْتَهِجٌ
وَالْبَــدْرُ يَنْشَقُّ وَالأَيَّــامُ فِي حُلُمِ
سِرْبُ الشَّيَاطِينِ لَمَّــا جِئْتَنَا احْتَرَقَتْ
وَنَــارُ فَارِسَ تَخْبُــو مِنْــكَ فِي نَدَمِ
وَصُفِّدَ الظُّلْمُ وَالأَوْثَــانُ قَدْ سَقَطَتْ
وَمَــاءُ سَاوَةَ لَمَّا جِئتَ كَالْحِمَمِ
قَحْطَانُ عَدْنَــانُ حَــازُوا مِنْكَ عِزَّتَهم
بِكَ التَّشَرُّفُ لِلتَّارِيخِ لا بِهِمِ
عَقُــودُ نَصْــرِكَ فِي بَدْرٍ وَفِي أُحُــدِ
وَعَدْلاً فِيكَ لا فِي هَيْئَــةِ الأُمَــمِ
شَــادُوا بِعِلْمِكِ حَمْــرَاءَ وَقُــرْطُبَةَ
لِنَهْرِكَ الْعَذْبِ هَبَّ الجِيلُ وَهْــوَ ظَمِي
وَمِنْ عِمَامَتِكَ الْبَيْضَــاءِ قَــدْ لَبِسَت
دِمشْقُ تَاجَ سَــنَاهَا غَيْــرَ مُنْثَلِمِ
رِدَاءُ بَغَــدَادَ مِنْ بُرْدَيْــكَ تَنْسِجُــهُ
أَيْدِي رَشِــيدِ وَمَأْمُــونِ وَمُعْتَصِمِ
وَسِدْرَةُ الْمُنْتَهَى أَوْلَتْــكَ بَهْجَتَــهَــا
عَلَى بِسَاطِ مِنَ التَّبْجِيــلِ مُحْتَــرَمِ

دَارَسْتَ جِبْرِيلَ آيَاتِ الكِتَابِ فَلَمْ
يَنْسَ الْمُعَلِّمُ أَوْ يَسْهُو وَلَمْ يَهِمِ
اقْرَأْ وَدَفْتَـرُكَ الأَيَّـامُ خُطَّ بِهِ
وَثِيقَةُ العَهْدِ يَا مَنْ بَرَّ فِي الْقَسَمِ
قَرَّبْتَ لِلْعَـالَمِ العُلْوِي أَنْفُسَنَا
مَسَّكْتَنَا حبلاً غَيْرَ مُنْصَـرِمِ
نُصِرْتَ بِالرُّعْبِ شَهْرًا قَبْلَ مَوْقِعَةٍ
كَأَنَّ خَصْمَكَ قَبْلَ الحَرْبِ فِي صَمَمِ
إِذَا رَأَوْا طِفْـلاً فِي الجَـوِّ أَذْهَلَهُمْ
ظَنُّوكَ بَيْنَ بُنُودِ الْجَيْشِ وَالْحَشَمِ
بِكَ اسْتَفَقْنَا عَلَى صُبْحٍ يُؤَرِّقُهُ
بِلالٌ بِالنَّغَـمَـةِ الحَـرَّا عَلَى الأُطُمِ
إِنْ كَانَ أَحْبَبْتُ بَعْدَ اللَّهِ مِثْلَكَ فِي
بَدْوٍ وَحَضَرٍ وَمِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ
فَلا اشتَفَى نَاظِرِي مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ
وَلا تَفَوَّهَ بِالْقَـوْلِ السَّدِيدِ فَمِي(١)

***

(١) «مقامات عائض القرني ـ المقامة النبوية» (ص٣٨ ـ ٥٣) ـ مكتبة الصحابة ـ الإمارات.

▫ للّه درُّ أمهاتِ المؤمنين حين يَصِفْنَ علوَّ همَّةِ نبينا ﷺ للصحابة!! تقول إحداهن: «وأيُّكم يُطيق ما كان يُطيق؟».

▫ وتقول الأخرىٰ: «ما لكم وصلاته ﷺ ؟!».

فأيُّ همَّةٍ كانت همَّةَ سيِّد البشر؟! هذا المُترَعُ عَظمةً وعلوَّ همةٍ وسُمُوًّا!!.

أَلا إن الذين بَهَرتهم عظمتُه لَمعذورون..

بأبي وأمي رسولُ اللَّه إلىٰ الناسِ في قَيْظ الحياة..

أيُّ سرٍّ توفَّر له فجعَل منه إنسانًا يُشرِّف بني الإنسان..؟.

وبأيَّةِ يدٍ طُولَىٰ، بَسَطها شطْرَ السماء، فإذا كلُّ أبواب رحمتِها، ونِعمتِها وهُداها، مفتوحةٌ علىٰ الرحاب؟.

أيُّ إيمان، وأيُّ عزْمٍ؟ وأيُّ مَضاءٍ؟!

أيُّ صِدق، وأيُّ طُهْر، وأيُّ نقاءٍ..؟!

أيُّ تواضع.. أيُّ حُبٍّ، أيُّ وفاء؟!.

أيُّ احترام للحياة وللأحياء؟!.

ومهما تتبارَىٰ القرائحُ والإلهامُ والأقلامُ متحدثةً عنه، عازفةً أناشيدَ عَظَمَته؛ فستظلُّ جميعًا كأنْ لم تَبْرَحْ مكانها، ولم تحرِّك بالقوْل لسانها..

وله كمالُ الدينِ أعلى همَّةٍ ... يعلُو ويسمُو أن يُقاسَ بثاني
لَمَّا أضاءَ على البريَّةِ زانَها ... وعلا بها فإذا هو الثَّقَلانِ
فوجدتُ كلَّ الصيْدِ في جَوْف الفِرا ... ولقيتُ كلَّ الناسِ في إنسانِ

ومهما سُطِّرتِ المجلداتُ في علوِّ همته، فليست غيرَ «بَنان» تومئُ علىٰ استحياءٍ إلىٰ بعض ما فيه.

وعلى تفنُّنِ مادحيـــهِ بوصْفِـــهِ   يَفنى الزمـــانُ وفيه ما لم يُوصَفِ

فلِعُلُوِّ همته ﷺ في السَّير فهو المُفرَدُ السابق، فلِسَبْقه لم يُوقفْ له علىٰ أثرٍ في الطريق.. والمشمرُ بعدَه قد يرىٰ آثارَ نيرانه علىٰ بُعْدٍ عظيم، كما يرىٰ الكواكب، ويَسْتخبرُ ممَّن رآهم: أين رآهم؛ فحالُه كما قيل:

أُسائلُ عنكم كلَّ غادٍ ورائـحٍ   وأومي إلى أوطانكم وأُسلِّمُ

◻ وللَّه درُّ حسَّانَ حين يصفُ رسولَ اللَّه ﷺ ومَن ربَّاهم الرسول ﷺ من قومه علىٰ عيْنه!! يقول:

لو كانَ في الناسِ سَبَّاقونَ بعـدَهُمُ   فكلُّ سـبْقٍ لأدنى سَبْقِهِمْ تَبَــعُ

◻ يقول ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ١٤٧ ـ ١٤٨): «انظر إلىٰ همَّة رسول اللَّه ﷺ، حين عُرضت عليه مفاتيحُ كنوز الأرض فأباها، ومعلومٌ أنه لو أخَذها لأنفقها في طاعةِ ربِّه تعالىٰ، فأبتْ له تلكَ الهِمَّةُ العاليةُ أن يتعلَّق منها بشيءٍ مما سوىٰ اللَّه ومَحابِّه، وعُرِض عليه أن يتصرَّف بالمُلْكِ فأباه.. واختار التصرُّفَ بالعبودية المحْضَة.. فلا إلهَ إلاَّ اللَّهُ خالقُ هذه الهمَّة، وخالقُ نفْسٍ تَحملها، وخالقُ هِممٍ لا تعدو همَمَ أخسِّ الحيوانات!!».

* أعلى الهمم:

همَّةٌ اتصلت بالحق سبحانه وتعالىٰ طلبًا وقصدًا، وأوصلت الخلْقَ إليه دعوةً ونُصحًا، وأعلىٰ الهمة: همَّةُ مَن دعا الثقَلَيْن من الإنسِ والجنِّ إلىٰ اللَّه.. وأوْقَفَ كلَّ نَفَسٍ من أنفاسهِ علىٰ هذه الغاية.

وإن كان موسى عليه السلام في مَظهرِ الجلال، وشريعتُه شريعةُ جلالٍ وقهر، وكان من أعظمِ خَلْق اللَّه هيبةً ووقاراً، وأشدِّهم بأْسًا وغضبًا للَّه، وبَطْشًا بأعداء اللَّه، وكان لا يُستطاع النظرُ إليه.. وعيسى عليه السلام كان في مَظهرِ الجمال، وكانت شريعتُه شريعةَ فضلٍ وإحسان، وكان لا يقاتِلُ ولا يحارب، وليس في شريعته قتالٌ ألبتةَ.. فإن نبيَّنا ﷺ كان في مَظهرِ الكمال، الجامعِ لتلك القوَّة والعدْل والشِّدَّة في اللَّه، ولهذا اللِّين والرأفةِ والرحمةِ، وشريعتُه أكملُ الشرائع، فهو نبيُّ الكمال، وشريعتهُ شريعةُ الكمال، وأمَّتُه أكملُ الأمم؛ وأحوالُهم ومقاماتُهم أكملُ الأحوال والمقامات، وجعَلَهم خيرَ أمة أُخرجتْ للناس، وكمَّل لهم منَ المحاسن ما فرَّقه في الأُمَمِ قبلَهم، كما كمَّل نبيَّهم ﷺ من المحاسن بما فرَّقه في الأنبياء قبله، وكمَّل كتابَه بالمحاسن التي فرَّقها في الكتب قبلَه، وكذلك في شريعته.

وتفصيلُ تفضيلِ النبي ﷺ وأمته وخصائصِه يستدعي سِفْراً، بل أسفاراً؛ فهم ضنائنُ اللَّهِ، وهم المجتبَوْن الأخيار، وذلك فضل اللَّه يُؤتيه مَن يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم.

*** رأى الناسُ رأْيَ العيْن علوَّ همَّتِه التي لا تدانيها همَّة:**

رأَوا طُهْرَه وعفَّتَه وأمانتَه واستقامتَه وشجاعته.. رأوا سُموَّه وحَنانه.. رأوا عقلَه وبيانَه.. رأوا الشمسَ تتألَّق تألُّقَ صِدْقِه وعَظَمةِ نفسه.. سمِعوا نُموَّ الحياة يَسري في أوصال الحياة، عندما بدأ رسولُ اللَّه ﷺ يَفيضُ عليها من وحي يومِه وأمسِه.. رأوا الكمالَ البشريَّ وعلوَّ الهمةِ ملْءَ كلِّ عينٍ وأُذنٍ وقلب..

يـروحُ بأرواح المحامـــد حُسْنُهـا   فيرقى بها في ســاميـاتِ المفاخـرِ
وإن فُضَّ في الأكوانِ مسْكُ ختامها   تَعطَّـــر منها كلُّ نجــدٍ وغــائـرِ

لقد كان رسولُ اللَّه ﷺ سيدَ الأوَّابين العابدين المتبتِّلين، لم تتخلَّف نفْسُه عن أغراضِ حياتِه العظمىٰ قِيْدَ شعْرة، ولم يُخْلِفْ موعدَه مع اللَّه في عبادةٍ ولا في جهاد.

لقد كانت السِّنونَ الأُولىٰ لرسالته سنواتٍ قلَّما نجدُ لها في تاريخ الثباتِ والصدقِ والعظمةِ نظيراً، وتلك سنواتٌ كشفَتْ أكثرَ مِن سواها عن كلِّ مزايا معلِّم البشريةِ وهاديها!! وتلك سنواتٌ كانت فاتحةَ الكتاب الحيِّ؛ كتابِ حياته وبطولاته، بل كانت - قبلَ سواها وأكثرَ من سواها - مَهْدَ معجزاته.

لقد جهَرَ رسولُ اللَّه ﷺ - وهو الوحيد الأعْزَل - بدعوة الحق، وقام بدِينِ اللَّه والدعوةِ إليه ما لم يقُمْ به أحد، وأُوذي في اللَّه ما لم يُؤْذَ أحدٌ قبله، مخلِصًا أمينًا، وهذا لا يَقدِر عليه إلاَّ أولو العزْم من الأبرار والمرسلين.

بلَّغ وبَلَّغ في غيرِ مداراة وفي غير هروب.. واجَهَ الشركَ ورؤوسَه من اللحظةِ الأولىٰ بجوْهر الرسالة ولُباب القضية، من اللحظة الأولىٰ واجههم بكلماتِ التوحيد المُبينة المُسْفِرة، وواجَهَ قومَه بدعوةٍ تتصدَّع مِن هَوْلِ وقْعِها الجبال.. وتخرجُ الكلمات من فؤاده وفمه صادعةً رائعة، كأنما احتشدتْ فيها كلُّ قوىٰ المستقبل وتصميمه.. كأنها قَدَرٌ يُذيع بيانَه.

ولقَّن رسول اللَّه ﷺ قُوىٰ الشرك أولَ دروسِه في أستاذيَّةٍ خارقة،

وتفانٍ عجيب، وكانت صورةُ المشهدِ تملأ الزمان والمكان، بل والتاريخ، وذوو الضمائر الحيَّة في مكةَ يَطْرَبون ويَعْجَبون من علوِّ همَّته. . رأوا رجلاً شاهقًا عليًّا. . لا يدرون: هل استطال رأسُه إلى السماءِ فلامَسَها. . أم اقتربت السماءُ من رأسه فتوَّجته؟!.

رأوا تفانيًا وصمودًا وعظمةً، ويقينًا ناهضًا فوق مِنَصَّةِ الأُستاذيَّة، يُلقِي على البشرية كلِّها أبلغَ الدروس، ويُلقِّنها أمضى مبادئها.

سَلُوا رجالَ مكة. . وسَلُوا الطائفَ عن سيِّد الرجال. . لقد كانت كلماتُه رجالاً.

أي ولاءٍ هذا الذي يحملُه الرسولُ ﷺ لدعوته!!

فرْدٌ أعزل. . تواجهُه المكائدُ أينما ولَّى وسار!!

ليسَ هناك من أسبابِ الحياة الدنيا ما يشدُّ أزره، ثم هو يَحمِلُ كلَّ هذا الإصرار، وكلَّ هذا الصمود والولاء!!.

بأبي وأمي رسول اللَّه ﷺ. . مَن ينطلقُ مهمومًا من أجل الدعوة بعد عودته من الطائف فلم يَستفقْ إلا وهو بـ «قرْن الثعالب». . بأبي هو وأمي. .

وكيفَ يُسامَى خيرُ من وطئ الثرى — وفي كلِّ باعٍ عن عُلاهُ قُصورُ!
وكلُّ شريفٍ عندهُ متواضِعٌ — وكلُّ عظيمِ القريتيْنِ حقيرُ!

نعم. .

فلقد سَرَتْ مَسرى النجومِ همومُهُ — ومضتْ مُضِيَّ الباتراتِ عزائمُه

نعم. .

فاقَ أهلَ المعالي — وعَلا مَن عَلاَها

● قال رسول اللَّه ﷺ: «مَثَلي في النبيين كَمثَل رجلٍ بنى داراً، فأحسَنَها وأكْمَلَها وأجْمَلها، وترَك فيها موضعَ لَبنة لم يَضعْها، فجعل الناسُ يطوفون بالبنيان ويَعْجَبون منه، ويقولون: لوْ تَمَّ موضعُ هذه اللبنة!!.. فأنا في النبيين موضعُ تلك اللَّبِنة»(١) .

❑ «لقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم علْمَ اليقين أنه جاء الحياةَ الإنسانيةَ ليُغيِّرها، وأنه ليس رسولاً إلىٰ قريشٍ وحدها، ولا إلىٰ العربِ وحدهم. . بل رسولَ اللَّه إلىٰ الناس كافَّة.

وقد فَتح اللَّه ـ سبحانه ـ بصيرتَه علىٰ المدىٰ البعيد الذي ستَبْلُغُه دعوتُه، وتَخفِقُ عنده رايتُه.

ورأىٰ رأيَ اليقينِ مستقبلَ الدينِ الذي بشَّر به. . ورغم ذلك كلِّه، لم يَر في نفسه، ولا في دينه، ولا في نجاحه ـ الذي لن تشهدَ الأرض له مثيلاً ـ أكثر من «لبنةٍ» في البناء. . !!.

كلُّ هذه الحياة التي عاشها. . كلُّ جهادِه وبطولاته. . كلُّ عظمتِه وطُهْره. . كلُّ هذا الفوز الذي حقَّقه دينُه في حياته، الفوزُ الذي كان يعلم أنه سيبلغه بعد مماته. . كلُّ ذلك ليس إلاَّ «لبنة»!! لبنةً واحدةً في بناءٍ شاهقٍ عريق. . !!.

وهو الذي يُعلن هذا ويقولُه، ويُصرُّ علىٰ توكيده!! ثم هو لا ينتحلُ بهذا القول تواضعًا، يُغذِّي به جُوعًا إلىٰ العظمة في نفسه، بل هو يؤكِّد هذا الموقفَ

(١) رواه أحمد والترمذي عن أبيٍّ، وأحمد والبخاري ومسلم عن جابر، وأحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة، وأحمد ومسلم عن أبي سعيد.

باعتباره حقيقةً تشكِّل مسؤوليةُ تبليغها وإعلانها جُزءً من جوهر رسالته.

ذلك أن التواضعَ - على الرغم من أنه خُلُقٌ من أخلاق الرسولِ ﷺ الأصيلة -، لم يكن الدليلَ الذي يدلُّ على عظمتِه ويُشير إليها؛ فإن عظمةَ الرسولِ بَلَغتْ من التفوُّق والأصالة ما جعَلها آيةَ نفسِها، وبرهانَ ذاتِها..».

فرْدُ التواضعِ فرْدُ الجُــودِ مكـرمةً   فرْدُ الوجـودِ عنِ الأشباه والنُّظَرَا

أعلى العلا في العُلا قدْرًا وأمنعُهُمْ   دارًا وجارًا واسمًا في السماءِ ذُرَا

وإذا كان التوحيدُ هو الغايةَ المطلوبة من جميع مقاماتِ الإيمان والأعمالِ والأحوال، وهو أولُ دعوةِ الرسل وآخرُها، وإذا كان أهلُ التوحيد يتفاوتون في توحيدِهم - عِلمًا ومعرفةً وحالاً - تفاوتًا لا يُحصيه إلا اللّه - فأكملُ الناسِ توحيدًا الأنبياءُ صلوات اللّه وسلامه عليهم، والمرسَلون منهم أكملُ في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكملُ توحيدًا، وأكملُهم توحيدًا الخليلانِ محمدٌ وإبراهيم صلوات اللّه وسلامه عليهما؛ فإنهما قاما من التوحيد بما لم يَقُمْ به غيرُهما؛ عِلمًا ومعرفةً وحالاً، ودعوةً للخَلق وجهادًا، فلا توحيدَ أكملُ من الذي قامت به الرسلُ، ودعَوا إليه، وجاهدوا الأممَ عليه؛ ولهذا أمَر اللّه سبحانه نبيَّه ﷺ أن يقتديَ بهم فيه.

ولمَّا فاق رسولُ اللّه ﷺ النبيِّين والمرسَلين، وقام بحقيقةِ التوحيد - عِلْمًا وعملاً ودعوةً وجهادًا -، جَعَله اللّهُ إمامًا للخَلْق ورسولاً للناسِ كافَّةً، بل وللثقلَيْن من الجنِّ والإنس.

وتوحيده جُعل أعلى توحيدٍ، وخاصَّةَ الخاصَّةِ، مَن رَغِب عنه فهو من أسفهِ السفهاء.

*** رسولُ اللَّهِ ﷺ أعلى الناسِ همَّةً في جميع مقاماتِ الدين:**

وقد كان رسولُ اللَّه ﷺ سيدَ المجاهدين والعابدين، والصابرين والصائمين.. كان أعلى الناس توكُّلاً، وأوفرَ الناس نصيبًا منَ الرضا والحمد، والدعاءِ والشكرِ والتبتُّل، وأعلى الناس يقينًا، وكان أشجعَ الناس، وأرحمَ الناس، وأَشدَّ الناس حياءً، وكان أحسنَ الناسِ خُلُقًا ومروءةً وتواضعًا، وأكثرَ الناسِ مراقبةً لربه، وأعلى الناس خشوعًا، وأَشدَّ الناس عبادةً لربِّه، وكان أطولَ الناس صلاةً.

□ وكُتبُ الشمائل المحمدية للترمذي وغيره؛ مملوءةٌ بالأحاديث التي تكشفُ عن هذا النور الذي أرسله اللَّه ليضيءَ للبشرية طريقًا.. ﷺ..

خُلُقٌ أرقُّ مِنَ النسيمِ ونفحةٌ ... تُغني العديمَ وتُنجدُ المجهودَا
وسَريرةٌ مَرْضيَّةٌ وعزيمةٌ ... عُلْويَّةٌ سمتَ السماءَ صُعُودَا
ذا البحرُ علمًا ذا الصخرُ حِلْمًا ... ذا النجومُ طلائعًا ذا الغَمامةُ جُودَا

□ وللَّه درُّ شوقي حين يقول فيه ﷺ:

وإذا رحمْتَ فأنت أمٌّ أو أبٌ ... هذانِ في الدنيا همَا الرُّحَمَاءُ

*** رسولُ اللَّه ﷺ أحسنُ الناسِ عطفًا ووُدًّا:**

□ يقول العقاد: «إذا كان الرجلُ مُحبًّا للناس، أهلاً لحبِّهم إياه، فقد تمَّتْ له أداةُ الصداقةِ من طرَفَيْها.. وإنما تتمُّ له أداةُ الصداقة بمقدارِ ما رُزق من سَعَة العاطفة الإنسانية، ومِن سلامة الذَّوْق، ومتانةِ الخُلُق، وطبيعةِ الوفاء.. وقد كان محمدٌ ﷺ في هذه الخصالِ جميعًا مَثَلاً عاليًا بين صفوةِ خَلْق اللَّه.

❑ كان عطوفًا يرأمُ مَن حوْله ويُوَدُّهم ويدومُ لهم على المودَّة طولَ حياته . . وليس في سجلِّ المودةِ الإنسانية أجملُ ولا أكرمُ من حنانه على مُرضعته «حليمة» ، ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين ؛ فيلقاها هاتفًا بها : «أُمِّي، أُمِّي» ، ويَفرشُ لها رِداءَه ، ويُعطيها من الإبل والشاءِ ما يُغنيها في السَّنة الجَدْباء .

❑ ولقد وفدتْ عليه «هوازنُ» وهي مهزومةٌ في وقعة «حُنين» ، وفيها عمٌّ له من الرضاعة ؛ لأجل هذا العمِّ من الرضاعة تشفَّع النبيُّ إلى المسلمين أن يردُّوا السَّبْي من نساءٍ وأبناء ، واشترى السَّبْي ممَّن أبَوْا ردَّه إلا بمال .

وحضنتْه في طفولته جاريةٌ عَجماء ، فلم يَنْسَ لها مودَّتها بقيَّة حياته .

● وشَغَله أن يَنْعَمَ بالحياة الزوجية ما يشغلُ الأبَ من أمر بناته ورَحِمِه ، فقال لأصحابه : «**مَن سرَّه أن يتزوَّج امرأةً من أهل الجنة فليتزوَّجْ أمَّ أيمن**» . . وما زال يُناديها : «**يا أُمَّهْ، يا أُمَّه**» ؛ كلما رآها وتحدَّث إليها ، وربما رآها في واقعةِ قتالٍ تدعو اللَّهَ وهي لا تدري كيف تدعو بلكنتها الأعجميَّة ، فلا تُنسيه الواقعةُ الحازبةُ أن يُصغيَ إليها ويَعطِفَ عليها .

وقد اتسع عطفُه حتى بَسَطه للأحياء كافَّة ، فـ «كان يُصغي للهرَّة الإناءَ فتشرب ، ثم يتوضأ بفضلها»[1] .

وكان يواسي في موتِ طائرٍ يلهو به أخو خادمِه[2] ، ويُوصي المسلمين

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني في «الأوسط» ، وأبو نعيم في «الحلية» عن عائشة ، ورواه أبو داود وابن ماجه والطحاوي ، والدارقطني في «الأفراد» ، والبيهقي في «السنن» ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٨٣٤) .

(٢) «**يا أبا عُمير ، ما فعَل النُّغير ؟**» .

بالدوابِّ، وكرَّرَ الوِصايةَ بها.

بل شَمِلَ عطفُه الأحياءَ والجمادَ كأنَّه من الأحياء؛ فكانت له قَصْعَةٌ يُقال لها «الغرَّاء»، وكان له سَيْفٌ مُحلًّى يسمى «ذا الفقار»، وكانت له دِرْعٌ موشَّحةٌ بنُحاسٍ تُسمَّىٰ «ذات الفضول»، وكان له سَرْجٌ يسمَّىٰ «الداج»، وبِساطٌ يسمَّىٰ «الكز»، ورَكْوة تسمَّىٰ «الصادر»، ومِرآةٌ تسمَّىٰ «المدلة»، ومقراضٌ يسمَّىٰ «الجامع»، وقضيب يسمَّىٰ «الممشوق».

وفي تسميته تلك الأشياءَ بالأسماء معنَىٰ الألفة، التي تجعلُها أشبَهَ بالأحياءِ المعروفين، مِمَّن لهم السِّماتُ والعناوين، كأنَّ لها «شخصيةً» مقرَّبةً تُميِّزُها بين مثيلاتها، كما يتميَّز الأحبابُ بالوجوه والملامح والكُنَىٰ والألقاب.

❑ وكان له ﷺ مع هذه العاطفةِ الجيَّاشةِ والرحمةِ الشاملة: ذَوقٌ سليم يُضارعُها رِفعةً ونُبلاً في رعايةِ شعور الناس أتمَّ رعايةٍ وأدلَّها علىٰ الكرَمَ والجود؛ «كان إذا لَقِيه أحدٌ من أصحابه فقام معه؛ قام معه، فلم ينصرفْ حتىٰ يكونَ الرجلُ هو الذي ينصرف عنه، وإذا لَقِيَه أحدٌ من أصحابه فتناوَلَ يَدَه، ناوَله إيَّاها، فلم يَنزِعْ يَدَه منه حتىٰ يكونَ الرجلُ هو الذي يَنزِعُ منه.. وكان إذا وَدَّع رجلاً أخذ بيده، فلا يَدَعُها حتىٰ يكونَ الرجلُ هو الذي يَدَعُ يده».

❑ «وانظرْ إلىٰ زيد بن حارثة ﷺ الذي خُطِف من أهله وهو صغير، ثم اهتدىٰ إليه أبوه واهتدىٰ هو إلىٰ أبيه علىٰ لهْفَةِ الشوقِ بعد يأسٍ طويل، فلما وجب أن يختارَ بين الرَّجْعةِ إلىٰ آله وبين البقاءِ مع رسول اللَّه ﷺ،

اختار البقاءَ مع السيِّد على الرجْعة مع الوالد»[1] .

□ لقد اعتلىٰ رسولُ اللَّه ﷺ الذِّروةَ الساميةَ في السماحة، بسماحةِ الكريم، وما أحدٌ أرحمَ ممَّن يرحمُ المفتَرين علىٰ سُمْعةِ أهلِه وهناءةِ بيتِه وأمانِ سِرْبه.

ولقد كان رسولُ اللَّه ﷺ خيرَ الناس لأهله وزوجاتِه أمهاتِ المؤمنين رضي الله عنهن .

بأبي هو وأمِّي رسول اللَّه ﷺ حين تتسعُ نواحي العظمة، وهو الذي يحملُ همَّ دعوةِ الثقلَيْن إلىٰ اللَّه ـ عز وجل ـ . . لا يَشغلُه شأنٌ عن شأنٍ حتىٰ يسابِقَ زوجاته . . واللَّهِ، هذه فُتوة الرُّوح قبل فُتوةِ الأوصال .

*** الرسولُ ﷺ قُدوةٌ للرجل المهذَّب في كلِّ زمانٍ ومكان :**

لقد كان رسولُ اللَّه ﷺ أسلمَ الناسِ طبْعًا، وأحسَنَ الناس ذوْقًا؛ وهُما الخصلتان اللَّتان كان ﷺ قدوةً فيهما لكلِّ رجلٍ مهذَّبٍ في كلِّ أمةٍ وفي كلِّ زمان؛ فلم يكن يهفُو في حقِّ أحدٍ، ولم يكن أحدٌ يشكو من مَحضَرِه بإنصاف . . وذلك هو مِلاكُ التهذيبِ الكاملِ في أصدقِ معانيه .

وخلاصةُ سَمْتِه وآدابِه أنها سماحةٌ في الأنظار، وسَماحةٌ في القلوب؛ فالسماحة هي الكلمةُ الواحدةُ التي تجمعُ هذه الخصالَ من أطرافها، والسماحةُ هي الصفة التي ترقَّتْ في محمد ﷺ إلىٰ ذِروةِ الكمال .

بأبي وأمي رسول اللَّه ﷺ !! .

ليس للنوع البشريِّ أصلٌ من أصول الفضائل يَرمي إلىٰ مقصدٍ أسمىٰ

(١) «عبقرية محمد» للعقّاد (ص٩٠ ـ ٩٤) بتصرُّف ـ دار الكتب الحديثة .

وأنبلَ من تقديسِ تلك المناقب، التي كان رسولُ اللَّه ﷺ قدوةً فيها للمقتدين.

أما في الزهد وعزيمةِ الإيمان: فقد كان رسول اللَّه ﷺ في المقام الأول بين الرجال؛ في المقام الأول بخلقته، وفي المقام الأول بنيَّته، وفي المقام الأول بعَمَله؛ وفي المقام الأول بالقياس إلىٰ المُشْبِهين له في دعوته.

لقد زَهِد رسولُ اللَّه ﷺ شحْذًا للعزيمة، وإعذارًا إلىٰ اللَّه فيما تجرَّد له من إصلاحٍ، لقد كانت هدايةُ الناس إلىٰ اللَّه - عز وجل - هي جُملةَ أمانيه وغايةُ آمالِه في دار الدنيا.. لقد كان رسول اللَّه ﷺ رجلاً لا كمثْلِه الرجال..

فمبْلَـغُ العلْمِ فيهِ أنَّهُ بشَـرٌ وأنه خيـرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمُ

* **رسول اللَّه ﷺ في التاريخ:**

إن التاريخ كلَّه بعد رسول اللَّه ﷺ متصلٌ به مرهونٌ بعمله.. كان التاريخُ شيئًا فأصبح شيئًا آخر. لقد كان لعلوِّ همَّته أثرٌ في الأحداثِ العِظام في تاريخ بني الإنسان.. بمِقدارِ ما في هذه الأحداث من فُتوحِ الرُّوح، لا بمِقدارِ ما فيها من فتوح البلدان، لقد تفتَّحت للإنسان آفاقٌ جديدةٌ في عالَم الضمير، ارتفع بها فوقَ طِباق الحيوانِ السائم، ودنا به مرتبةً إلىٰ اللَّه.

لقد كانت فتوحُ رسول اللَّه ﷺ فتوحَ إيمان، وكانت قُوَّته قوةَ إيمان، وما من سِمَةٍ لعمله أوضحُ من هذه السِّمَة.

لقد حكَم التاريخُ لرسول اللَّه ﷺ أنه كان في نفسِه قدوةَ المهذَّبين، وكان في عملِه أعظمَ الرجالِ أثرًا في الدنيا، وكان في عقيدته أفضلَ الناس

إيمانًا، وصاحبَ الدين الحقِّ، الذي يبقىٰ ما بَقِيَ في الأرض دِين.

سيطلُع في الأُفقِ هلالٌ ويَغيب هلال، وتُقبِلُ السَّنَةُ القمريةُ بعد السَّنَةِ القمرية بمَعْلَمٍ من معالم السماء، يُومئ إلىٰ بقعةٍ من الأرض هي غارُ يوم الهجرة، ويومئُ إلىٰ يومٍ لرسول اللَّه ﷺ هو أجملُ أيامه؛ لأنه أدلُّ الأيامِ علىٰ عُلوِّ همَّتـه، وأخلصُها لعقيدتـه ورجـاءُ سـريرتـه.. يومَ أن تَرك رسولُ اللَّه وراءَه كلَّ شيءٍ من أجل دينه ودعوته.

إنَّ مِن سَعةِ نفْسه ﷺ، وآفاقِ نفْسِه الواسعة: أنها شَملت كلَّ ناحيةٍ من نواحي العاطفةِ الإنسانية، وهي المقياسُ الذي يُبدي من العظمةِ ما يُبديه الجِدُّ في أعظمِ الأعمال.. لقد نَهَض رسولُنا ﷺ بأعظمِ الأمور؛ وهو إقامةُ دينِ اللَّهِ وإصلاحُ الثقلَيْن، وتحويلُ مجرىٰ التاريخ، ثم يَطيبُ نَفسًا في مُزاحٍ مع إخوانه أو مع أولاده أو مع عَبيده، فكان المثالَ الفذَّ في كلِّ هذا.. وأريحيَّةً لا تُدانيها أريحية، تدلُّ علىٰ منتهىٰ نقاءِ السريرة في بني الإنسان.

* **عظمةُ العَظَماتِ عند رسولنا ﷺ:**

لقد تمَّت لرسول اللَّه ﷺ معجزتُه التي لم يصارعْه فيها أحد قبله.. لقد ربَّىٰ رسول اللَّه ﷺ نُخبةً من ذوي الأقدار تجمعُ بين عظمةِ الحَسَبِ، وعظمةِ الثروة، وعَظَمة الرأي، وعَظَمة الهمة، وكلٌّ منهم ذو شأنٍ في عظمته تقومُ عليه دولة وتَنهضُ به أُمَّة؛ كما أثبت التاريخُ من سِيَر أبي بكر وعمرَ وعثمانَ وعلي، وأبي عُبيدة وسعدٍ والزبيرِ وطلحة، وخالدٍ وأسامةَ وابنِ العاص رضي الله عنهم.. وسائر الصحابة الأوَّلين..

أئمَّــــةٌ شرَّفَ اللَّهُ الوجــودَ بهمْ سامُوا العلا فسَمَوْا فوقَ العلا رُتَبَا

ربما عَظُم الرجُل في مَزِيَّةٍ من المزايا، فأحاط به الأصدقاءُ والمُريدون من النابغين في تلك المزيَّة، كإحاطةِ الحكماءِ بسقراطَ.. بل ربَّما أحاط الصالحون بالنبيِّ العظيم كما أحاط الحواريُّون بالمسيح عليه السلام، وكلُّهم من معدنٍ واحدٍ وبيئة واحدة.. أمَّا عظمةُ العظَمات، فهي تلك التي تجذبُ إليها الأصحابَ النابغين في كلِّ معدنٍ وكلِّ طراز، بل تُربِّي الأصحابَ، وتستشفُّ قدراتِ كلٍّ منهم، وتؤهِّله لإبراز هذه المزيَّة.. تربيةً تُخرِج رجالاً يتفاوتون في مزاياهم مثلَ التفاوتِ الذي بين أبي بكر وعمر، وبين عثمانَ وعلي، وبين خالدٍ ومعاذ، وأسامةَ وابنِ العاص؛ كلُّهم عظيم، وكلُّهم مع ذلك مُخالِفٌ في وَصْفِ العظمةِ لسواه.

تلك هي العظمةُ التي اتَّسعت آفاقُها وتعدَّدت نواحيها، حتى أصبحت قُطْبًا جاذِبًا لكلِّ معدِن، وأصبحت تَجمعُ في تربيتها لأصحابها بين البأس والحِلْم، وحِنْكَةِ المُسِنِّ وحَمِيَّة الشباب.

◻ ولله درُّ مَن قال:

يبني الرجالَ وغيرُهُ يبني القُرَى   شتَّانَ بين قُرًى وبين رجالِ

◻ لقد كان رسول الله ﷺ أصفى الناسِ بصيرةً، فاستخرج مكنوناتِ وذخائرَ الصحابة - كلٌّ على قَدْرِه -، صِدْقُ الصِّدِّيق، وحياءُ عثمان، وصراحةُ الفاروق وهيبتُه وشِدَّته، وزُهْدُ عليٍّ، وشجاعةُ الزبير، وأمانةُ أبي عبيدة، وسخاءُ طلحة، وتواضُع أبي ذَرٍّ، وحكمةُ أبي الدرداء، وعِلْمُ معاذ، وإيمانُ عمَّار، وعُلُوُّ هِمة سلْمان، وتبتُّل ابنِ مظعون، وصِدْقُ سعدِ ابنِ معاذ، وصلاحُ وجُودُ ابن الزبير.. وكلُّ خصلةٍ من هذه الخصال خيرٌ من الدنيا وما فيها.

ربَّاهم الرسول ﷺ وهو أدرىٰ الناسِ بالرجال، فظهر منهم الجيلُ القرآني الفريد؛ «ما كان حديثًا يُفترىٰ، ولا فُتُونًا يتردَّد، ذلك الحديث الذي رَوىٰ به التاريخُ أنباءَ أعظمِ ثُلَّةٍ ظَهَرتْ في دنيا العقيدة والإيمان!! فالعظمةُ الباهرةُ لأولئك الرجال الشاهقين من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ليستْ أساطير، وإن بدَت من فرْطِ إعجازها كالأساطير!!!.

إنها عظمةُ ما غَرَسه رسولُ اللَّه ﷺ فيهم لتسموَ وتتألَّق، لا بقَدْرِ ما يريدُ لها الكُتَّابُ والواصفون، بل بقَدْرِ ما أراد لها أصحابُها وذَووها، وبقدْر ما بذَلوا في سبيل التفوق والكمال؛ مِن جَهدٍ خارقٍ مبرور.

ولا يزعم أيُّ إنسان لنفسِهِ القُدرةَ علىٰ تقديم هذه العظمةِ كاملةً.. إذ حَسْبُه أن يُومِئَ إلىٰ علوِّ هِمَّتهم وسماتِ عظمتهم، ويتطلَّعَ إلىٰ سمائها.

لم يشهدِ التاريخُ ـ ولنْ يشهد ـ رجالاً مِثلَ صحابة رسول اللَّه ﷺ، رباهم نبيُّهم ومعلِّمُهم ﷺ علىٰ غاياتٍ تنهاتْ في العدالة والسموِّ، وعقدوا علىٰ ذلك عزْمَهم ونواياهم، ونَذَروا لها حياتَهم علىٰ نسَقٍ تناهىٰ في الجَسارة والتضحية، والبذْل ومكارمِ الأَخلاق.

لقد جاء رسولُ اللَّه ﷺ الحياةَ وجاؤوا معه في أوانهم المرْتَقَب، ويومِهم الموعود؛ لقد كان أصحابُ محمدٍ ﷺ ذخائرَ اللَّه من خلْقه، وخيرَ قرونِ هذه الأُمة.

كيف أنْجزَ رسولُ اللَّه ﷺ بهم ومعهم ما أنجزه في بِضْع سنين؟! كيف دمدموا علىٰ العالَم بإمبراطوريَّاتِه وصَوْلَجَانه، وحَوَّلوه إلىٰ كثيبٍ مهيل؟!.

كيف شادوا بالقرآن ـ كلماتِ اللَّه ـ عالَمًا جديدًا، يهتزُّ نَضْرةً ويتألقُّ

عظمةً ويتفوّقُ اقتدارًا؟!.

وقبل هذا كلِّه، وفوق هذا كلِّه: كيف استطاعوا في مِثْلِ سرعةِ الضوءِ أن يُضيؤوا الضميرَ الإنسانيَّ بحقيقةِ التوحيد، ويكنِسوا منه إلى الأبد وثنية القرون؟!.

تلك هي معجزةُ نبيِّهم ﷺ وكراماتهم الحقَّة.

إن معجزةَ المعجزاتِ تتمثَّل في تلك التربيةِ التي ربَّاهم نبيُّهم ﷺ عليها وصاغ بها فضائلَهم، واعتصموا هُمْ بإيمانهم على نحوٍ يَجِلُّ عن النظير!!.

على أن كلَّ معجزاتِهم التي حقَّقوها، لم تكن سِوى انعكاسٍ متواضعٍ للمعجزة الكبرى التي أهلَّتَ على الدنيا يومَ أَذِن اللّه لقرآنه الكريم أنه يتنزَّل، ولرسوله الأمين ﷺ أن يُبلِّغ؛ ولموْكبِ الإسلام أن يبدأ على طريقِ النور خُطاه!!.

لقد ربَّى الأمينُ - كلُّ الأمين - ﷺ أولئك الرجالَ الأبرار، لنستقبلَ فيهم أروعَ نماذجِ البشريةِ الفاضلةِ وأبهاها.. ولِنرى تحتَ الأسمالِ المتواضعةِ أسمى ما عرفتِ الدنيا من عظمةٍ ورُشد.. فللّه درُّهم من كتائبِ حقٍّ طوْتِ العالَمَ بإيمانها، زاحمةً جوَّ السماء براياتها تُعلِنُ للكونِ كلِّه: كمْ كانت همَّةَ مَن ربَّاهم ﷺ عاليةً.. وكم كانت شمائلُه غاليةً.. وكمْ كانت حياته ساميةً.. وكم كانت أمانته زاهية!!.

بأبي هو وأُمي!! كم علَتْ همَّته في البَذْل الذي بَذَل، والهَولِ الذي احتمل؛ لتحرير البشرية من وثنية الشركِ والضمير، وضياعِ المصير.. فجزاه اللّه خيرَ ما جزى نبيًّا عن أُمته.. وجَعَله أعلى النبيين درجة، وأَقربَهم منه وسيلةً، وأعظمَهم عنده جاهًا، وتوفَّانا على ملَّته، وعرَّفنا

وَجْهَه في رِضوانه والجنة، وحشَرَنا معه غيرَ خزايا ولا نادمين، ولا شاكِّين ولا مبدِّلين ولا مرتابين».

* السلام عليك أيها النبيُّ ورحمةُ اللَّه وبركاته:

◻ للإمام ابن القيم ذوقٌ عالٍ، وهو يُبيِّنُ الحكمة في السلام على النبي ﷺ في التشهُّد بصيغة الخطاب، فقال ـ رحمه اللَّه ـ: «وأمَّا السلام عليه، فأتى بلفظِ الحاضرِ المُخَاطَب تنزيلاً له منزلةَ المُواجَه لحكمةٍ بديعةٍ جدًّا؛ وهي أنَّه لما كان أَحبَّ إلى المؤمن من نفسه التي بيْن جنبيْه، وأَوْلَى به منها، وأقربَ، وكانت حقيقتُه الذِّهنيةُ ومثالُه العِلميُّ موجوداً في قلبه بحيث لا يَغيبُ عنه إلاَّ شخصه كما قال القائل:

مِثـالُكَ في عَيني وذِكـرُكَ في فَمي ... ومَثْـواكَ في قلبـي فأين تغيبُ!

ومَن كان بهذه الحال فهو الحاضرُ حقًّا، وغيرُه ـ وإن كان حاضراً للعيان ـ فهو غائبٌ عن الجَنان، فكان خِطابُه خطابَ المواجهةِ والحضورِ بالسلام عليه أَوْلَى من سلامِ الغَيبة، تنزيلاً له منزلةَ المواجَهِ المعايَنِ لقربه من القلب، وحلوله في جميعِ أجزائه بحيث لا يبقى في القلب جزءٌ إلاَّ ومحبَّتُه وذِكرُه فيه، كما قيل: «لو شُقَّ عن قلبي يُرى وسطَه ذكرُكَ»، ولا يُستنكر استيلاءُ المحبوبِ على قلب المحبِّ وغَلبتُه عليه حتى كأنه يراه، ولهذا تجدُهم في خطابهم لمحبوبهم إنما يعتمدون خطابَ الحضور والمشاهَدة مع غايةِ البُعد العياني لكمالِ القرب الرُّوحي، فلم يَمْنَعْهم بُعْدُ الأشباحِ عن محادثة الأرواح ومخاطبتها، ومَن كثُفت طباعُه فهو عن هذا كلِّه بمعزل، وإنه لَيَبلغُ الحبُّ ببعضِ أهلِه أن يَرى محبوبَه في القرب إليه بمنزلة رُوحه التي لا شيءَ

أدنىٰ إليه منها كما قيل:

يا مقيمًا مـدى الزمـان بقلبي وبعيدًا عن ناظـري وعياني
أنت رُوحي إن كنتُ لستُ أراها فهـيَ أدْنى إليَّ من كلِّ داني

□ وقال آخر:

يا ثاويًا بين الجوانـح والحَشَـا منِّي وإنْ بَعُدَتْ عَلَيَّ ديـارهُ

□ وإنه لَيَلْطُفُ شأنُ المحبَّة حتىٰ يرىٰ أنه أدْنَىٰ إليه وأقربُ من رُوحه، ولي من أبياتٍ تلمُّ بذلك:

وأدْنَى إلى الصَّبِّ مِن نفسِـه وإنْ كانَ عن عينـه نـائيا
ومَن كان مع حُبِّـه هكـذا فـأنَّى يـكون له سـاليا

ثم يلطُفُ شأنُها ويَقهرُ سلطانُها حتىٰ يغيب المحبُّ بمحبوبهِ عن نفسِه، فلا يشعر إلاَّ بمحبوبه ولا يشعر بنفسه»[١].

* **لا تنقطع عن نبيِّك الكريم ﷺ ولو ثانيةً من الزمان.. وعِش فيه أبدًا:**

□ قال الرافعيُّ ـ رحمه اللَّه ـ: «عجيبٌ أن يجهلَ المسلمون حِكمةَ ذِكرِ النبي العظيم ﷺ خمسَ مراتٍ في الأذان كلَّ يومٍ، يُنادَىٰ باسمه الشريف ملءَ الجوِّ؛ ثم حكمةَ ذِكرِه في كلِّ صلاةٍ من الفريضة والسُّنَّة والنافلة، يُهمَس باسمِه الكريم ملءَ النَّفْس! وهل الحكمةُ من ذلك إلاَّ الفرضُ عليهم ألاَّ ينقطعوا من نبيِّهم ولا يومًا واحدًا من التاريخ، ولا جُزْءً وحدًا من اليوم، فيمتد الزمنُ مهما امتدَّ والإسلامُ كأنه علىٰ أوَّله، وكأنَّه في يومِه لا في دَهْرٍ بعيد؛ والمسلمُ كأنه مع نبيِّه بين يديْه تبعثُه رُوح الرسالة، ويَسطعُ في نفسِه

(١) «بدائع الفوائد» لابن قيم الجوزية (٢/ ١٩١ ـ ١٩٢) ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.

إشراقُ النُّبوَّة، فيكونُ دائمًا في أمره كالمُسلِم الأوَّل الذي غَيَّر وجه الأرض، ويظهرُ هذا المسلمُ الأولُ بأخلاقه وفضائله وَحَمِيَّته في كلِّ بقعةٍ من الدنيا مكانَ إنسانِ هذه البقعة، لا كما نرىٰ اليوم؛ فإن كلَّ أرضٍ إسلاميةٍ يكادُ لا يظهر فيها إلاَّ إنسانُها التاريخيُّ بجهله وخرافاتِه وما وَرِثَ مِن القِدَم؛ فهنا المسلمُ الفرعوني، وفي ناحيةِ المسلمُ الوثني، وفي بلدِ المسلمُ المجوسي، وفي جهةِ المسلمُ المعطَّل.. وما يريدُ الإسلامُ إلا نفسَ المسلمِ الإنساني.

✍ أيها المسلم!.

لا تنقطعْ من نبيِّك العظيم، وعِشْ فيه أبدًا، واجعَلْه مَثَلَكَ الأعْلَىٰ؛ وحين تذكرُه في كل وقت فكُن كأنك بن يديْه؛ كنْ دائمًا كالمسلم الأول؛ كنْ دائمًا ابنَ المُعْجِزَة..

أُحَيْبابَ قلبي هل سواكم لِعلَّتي ... طبيبٌ بداءِ الهائمين خَبيرُ؟!
جيوشُ هُدَاكم كلُّ لَمْحَة ناظر ... على حضنِ قلبي بالغرام تُغيرُ
ودَمْعي غزيرُ السَّكْب في عَرَصَاتِكُمْ ... فكيفَ أَكُفُّ الدَّمْعَ وهوَ غـزيرُ!
وإن تباريـحي بكـم وصَبَـابتي ... لَهُـنَّ رَواحٌ في الحشا وبُكـورُ
أَحِنُّ إذا غَنَّت حمـائِمُ رَوْضِكم ... وينـزعُ قلبـي نحوكم ويَطيـرُ
عَدِمنا على الدنيا وجودَ نَظيركُم ... لقدْ قلَّ مَوْجـودٌ وعَـزَّ نظيرُ
وكيف يسامَى خيرُ مَن وطئ الثَّرَى ... وفي كل باعٍ عن عُلاكَ قُصورُ
وكلُّ شريف عندكم متـواضِـعٌ ... وكُلُّ عظيم القَرْيَتـين حقيـرُ
إذا ذُكر ارتاحتْ قلـوبٌ لذكركم ... وطابتْ نفوسٌ وانشَرَحْنَ صدورُ

***

* **تَضيقُ بنا الدنيا إِذا غبتُمُ عنا:**

العيشُ مع محمد ﷺ يَسكُبُ في القلوب الطاهرةِ أجملَ ما يُسكَب.. فأيُّ طمأنينةٍ وأيُّ سكينةٍ يُفيضُها على القلب؟! وأيُّ ثقةٍ في الحق والخيرِ والصلاح؟! وأيُّ قوةٍ واستعلاءٍ على الواقع الصغير يسكبُها في الضمير؟!.

العيشُ مع محمدٍ رسول اللّه ﷺ وسُنَّته نعمةٌ ترفعُ العمرَ وتُباركه وتُزكِّيه، يَعيشُ المسلمُ هادئَ النفس.. مطمئنَّ السريرة، قريرَ الضمير، في ملاذٍ أمين، ونجوةٍ من الهواجس والوساوسِ والشياطين.. فعِشْ معه ﷺ، وفيه، ولا تَغِبْ عنه طرفةَ عين..

تَضيقُ بنا الدُّنْيَا إذا غِبْتُمُو عَنَّا ... وَتَزهَقُ بالأشواقِ أرواحُنا منَّا
بعادكمُ مَـوْتٌ وقُـرْبُكُـمو حَيَـا ... وإنْ غِبْتُمو عَنَّا ولوْ نَفَسًا مِتْنَا
نعيشُ بِذِكْرَاكُمْ إِذا لَمْ نَرَاكُمُو ... أَلَاَ إنَّ تذْكَارَ الأَحِبَّةِ يُنْعِشُنَا
يُحَرِّكُنَا ذِكْرُ الأَحاديث عَنْكُمُو ... ولولا هَوَاكُم في الحَشَا ما تَحَرَّكْنَا
ولولا مَعَانيكم تَرَاها قلوبُنـا ... إذا نحنُ أَيقَاظٌ وفي الليل إنْ نمْنَا
نَمُـوتُ أسًى من بُعْدكُم وصبابَةً ... ولَكنَّ في المعنى مَعَانيكمُو مَعْنَا
إِذَا لم تَذُقْ ماذاقت النَّاسُ في الهوَى ... فَباللَّه يا خاليَ الحَشَا لا تُعَنِّفْنَا
أما تَنْظُرُ الطَّيْرَ المُقَفَّصَ يا فَتَى ... إِذَا ذَكَر الأَوطانَ حَنَّ إلى المَغْنَى؟!
وَفَرَّجَ بالتَّغْرِيد مَا في فُؤاده ... فيُقْلقُ أربابَ القُلُوب إذا غَنَّى
كذلكَ أرواحُ المُحبِّين يا فَتَى ... تُهزْهِزُها الأشواقُ لنبيِّنا الأَسْنَى

□ «فسبحان مَن جَعَل الرسولَ ﷺ لأدواءِ القلوب شافيًا، وإلى الإيمان وحقائقه مناديًا، وإلى الحياة الأبديَّةِ والنعيمِ المقيمِ داعيًا، وإلى طريق الرشاد

هاديًا . . لقد أسمع منادي الإيمان ﷺ لو صادف آذانًا واعية، وشفت مواعظُ القرآن لو وافقت قلوبًا خالية، ولكن عَصَفَتْ على القلوب أَهوِيةُ الشبهاتِ والشهوات، فأطفأت مصابيحَها، وتمكَّنت منها أيدي الغفلة والجهالة فأغلقت أبوابَ رُشدِها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبُها فلم ينفعْ فيها الكلام، وسَكِرت بشهوات الغَيِّ وشبهاتِ الباطل، فلم تُصْغِ إلى الملام، ووُعِظت بمواعظَ أنكى فيها من الأسِنَّة والسِّهام، ولكن ماتت في بحرِ الجهل والغفلة، وأَسْرِ الهوى والشهوة، وما لِجُرحٍ بميت إيلام»[1] .

* * *

(١) «الوابل الصيب» لابن قيم الجوزية (ص٦٨ ـ ٧٠).

رائعة أحمد شوقي أمير الشعراء ـ للَّه دَرُّه ـ

﴿ الهمزية النبوية ﴾[1]

وُلِدَ الهُدَى فَالكائناتُ ضياءُ ... وَفَمُ الزَّمانِ تبسُّمٌ وَثَناءُ[2]

الرُّوحُ وَالْمَلأُ المَلائكُ حَوْلَهُ ... للدِّينِ وَالدُّنيا به بُشَراءُ[3]

وَالعَرْشُ يَزهُو، وَالْحَظيرةُ تزدَهِي ... وَالْمُنْتَهَى، وَالسِّدْرَةُ العَصْمَاءُ[4]

وَحَديقَةُ الفُرْقانِ ضاحِكَةُ الرُّبا ... بالتَّرْجُمانِ، شَذِيَّةٌ، غَنَّاءُ[5]

وَالوَحْيُ يَقْطُرُ سَلْسَلاً من سَلْسَلٍ ... وَاللَّوحُ وَالقَلَمُ البَديعُ رُواءُ[6]

نُظِمَتْ أسامِي الرُّسْلِ فَهْيَ صَحيفةٌ ... في اللَّوْحِ، وَاسْمُ مُحمَّدٍ طُغراءُ[7]

---

(١) من بحر الكامل (متفاعِلن، متفاعلن، متفاعِلن).

(٢) الهدىٰ: يقصد النبي محمداً ﷺ.

(٣) الروح الأمين: لقب جبريل ـ والملأ: الأشراف. والملائك: الملائكة. وبشراء: جمع بشير.

(٤) يزهو: يشرق. وسدرة المنتهىٰ: اسم أطلقه القرآن علىٰ مكان علوي، هو الذي انتهت إليه رحلة المعراج، وهو غيب لا يعلمه إلا اللَّه. والسِّدرة واحدة السِّدر. وهو شجر النبق.. جُعلت السدرة مثلاً لذلك المكان كما جُعلت النخلة مثلاً للمؤمن.

(٥) الرّبا: جمع ربوة، وهي ما ارتفع من الأرض. والغَنّاء: مؤنث الأغنّ، وهي من الرياض الكثيرة العشب.

(٦) السَّلسل: الماء العذب السهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه. يعني هنا القرآن الكريم. والرواء: ماء الوجه وحسن المنظر.

(٧) الطغراء: ما يسميه العامة «طرة» وأصلها طغرىٰ بالقصر، وهي التي تكتب بالقلم الغليظ في صدر الأوامر.

اسْمُ الجَلالَةِ فِي بَدِيــــعِ حُرُوفِه ... أَلِفٌ هُنالِكَ، وَاسْمُ «طه» الْباءُ[١]
يا خَيْرَ مَنْ جاءَ الوجــودَ، تَحِيَّةً ... مِن مُرسَلِينَ إلى الهُدى بِكَ جاؤُوا
بَيْتُ النَّــبِيِّنَ الَّذي لا يَلْتَــقِي ... إلا الحَنــائِفُ فيــه وَالحُنَفــاءُ[٢]
خَيْرُ الأبوَّةِ حازَهُــمْ لَكَ «آدمٌ» ... دُونَ الأنامِ، وأَحْرَزَتْ «حَـوَّاءُ»[٣]
هُمْ أدركوا عِزَّ النُّبُــوَّةِ وَانْتَهَتْ ... فيها إِلَيْكَ الْعِــزَّةُ القَعْســاءُ[٤]
خُلِقَتْ لِبَيْتِكَ، وَهْوَ مَخْلوقٌ لَها ... إنَّ العَظائِمَ كُفُؤُها العُظَمــاءُ[٥]
بِكَ بَشَّرَ اللَّه السَّــماءَ فَزُيِّنَتْ ... وَتَضَوَّعَتْ مِسْكًا بِكَ الْغَبْـراءُ[٦]
وَبَدَا مُحَيَّــاكَ الذي قَسَــماتُهُ ... حَقٌّ، وغُرَّتُــه هُدًى وَحَيَــاءُ[٧]
وَعَلَيْهِ مِنْ نُــورِ النُّبُـوَّةِ رَوْنَقٌ ... ومِنَ الْخَليلِ وَهَـدْيِـه سِـيماءُ[٨]
أَثْنَى «المسيحُ» عَلَيْهِ خَلْفَ سَمائِه ... وَتَهَلَّلَتْ وَاهْتَـزَّتِ «العَــذْراءُ»[٩]

---

(١) أي أن ذكر محمد ﷺ مقترن بذكر اللَّه دائمًا في الشهادة، تصديقًا لقوله تعالىٰ: ﴿ورَفَعْنا لكَ ذِكْرَكَ﴾.

(٢) الحنفاء: جمع مفرده الحنيف: الصحيح الميل إلىٰ الإسلام، وكل من كان علىٰ دين إبراهيم عليه السلام، والمؤنث حنيفة، وجمعها حنائف.

(٣) أحرزت: تحصّنت وتصوّنت.

(٤) القعساء: مؤنث الأقعس وهو: المنيع الثابت.

(٥) الكُفْء: المِثْل والنظير من كفأ.

(٦) تضوع المسك: نتشرت رائحته. والغبراء: الأرض.

(٧) القسمة ما بين الوجنتين والأنف، وجمعها قَسَمات.

(٨) الخليل: إبراهيم عليه السلام. والسّيماء: من سَوم علامة الحسن والبهجة.

(٩) العذراء: السيدة مريم.

يَوْمٌ يَتيهُ عَلى الزَّمانِ صَبَاحُهُ ... وَمَسَاؤُهُ «بِمُحَمَّدٍ» وَضَّاءُ
الحقُّ عالِي الرُّكْنِ فيه، مُظَفَّرٌ ... فِي الْمُلْكِ، لا يَعْلُو عَلَيْهِ لِواءُ
ذُعِرَتْ عُروشُ الظَّالمينَ، فَزُلْزِلَتْ ... وَعَلَتْ عَلى تيجانِهِمْ أصْداءُ(١)
وَالنَّارُ خاوِيَةُ الجَوانِبِ حَوْلَهُمْ ... خَمَدَتْ ذَوائِبُها، وَغَاضَ الماءُ(٢)
والآيُ تَتْرَى، وَالْخَوارِقُ جَمَّةٌ ... «جبريلُ» رَوَّاحٌ بِهَا غَدَّاءُ(٣)
نِعْمَ اليَتيمُ، بَدَتْ مخايلُ فَضلِهِ ... وَاليُتْمُ رِزْقٌ بَعْضُهُ وَذَكاءُ(٤)
في المَهْدِ يُسْتَسْقَى الحيا بِرَجائِهِ ... وَبِقَصْدِهِ تُسْتَدفَعُ البَأساءُ(٥)
بِسِوى الأمانَةِ في الصِّبا وَالصِّدْقِ لَمْ ... يَعْرِفْهُ أهْلُ الصِّدْقِ وَالأُمَناءُ
يا مَنْ لَهُ الأخْلاقُ ما تَهْوَى العُلا ... مِنْها وَما يَتَعَشَّقُ الكُبَراءُ
لَوْ لَمْ تُقِمْ دِينًا؛ لَقامَتْ وَحْدَها ... دِينًا تُضيءُ بِنورِهِ الآناءُ(٦)
زانَتْكَ في الْخُلُقِ العَظيمِ شَمائِلٌ ... يُغْرَى بِهِنَّ وَيُولَعُ الكُرَماءُ(٧)

---

(١) يقصد إيوان كسرىٰ ملك الفرس، الذي سقطت منه أربع عشرة شرفة يوم مولده ﷺ.

(٢) خمدت النار: سكن لهيبها. والذوائب: جمع ذؤابة، وهي أعلىٰ كل شيء، والمراد بالذوائب هنا ألسنة اللهب. والمراد النار التي كان الفرس يعبدونها، ولم تخمد قبل ذلك. وغاض الماء: نضب وذهب في الأرض، والمراد ماء بحيرة ساوة.

(٣) تترىٰ: تتوالىٰ. ورواح غداء، أي: يروح ويغدو.

(٤) المخيلة: المظنة.

(٥) استسقىٰ الرجل: طلب السقي. والحيا: المطر.

(٦) الآناء: جمع أنْيٍ، ساعات الليل.

(٧) يُغرىٰ بهن: يحبهن الكرماء بدافع ذاتي. والولع: شدة الحب والتعلّق.

أما الجَمالُ؛ فَأنْتَ شَمْسُ سَمائه ... وَملاحةُ «الصِّدِّيق» منْكَ أياءُ[1]
وَالْحُسْنُ مِنْ كَرَمِ الوجوه، وَخَيْرُهُ ... ما أوتِيَ القُوَّادُ وَالزُّعَمـــاءُ
فَإذا سَخَوْتَ بَلَغْتَ بِالْجود الْمَدى ... وَفَعَلْتَ ما لا تَفْعَلُ الأنــواءُ[2]
وَإذا عَفَوْتَ فَقــادراً وَمُقَـــدِّراً ... لا يَسْتَهِينُ بعَفْواكَ الجُهَلاء
وإذا رَحِمْـتَ فأنتَ أمٌّ أوْ أبٌ ... هذان فِي الدُّنْيا هُما الرُّحَماءُ
وَإذا غَضِبْتَ فإنَّمــا هيَ غَضْبَـــةٌ ... في الحقِّ لا ضِغْنٌ ولا بَغْضاءُ[3]
وإذا رَضيتَ فَذاكَ في مَرْضاته ... وَرِضَـى الْكَثيرِ تَحَلُّمٌ ورِياءُ[4]
وإذا خَطَبْتَ فَلِلمَنابِرِ هِزَّةٌ ... تَعْرو النَّدِيَّ، وَلِلْقُلوبِ بُكاءُ[5]
وَإذا قَضَيْتَ فَلا ارْتِيابَ، كَأنَّما ... جاءَ الخُصومَ مِنَ السَّماء قَضاءُ
وَإذا حَمَيْتَ المَاءَ لم يُورَدْ، وَلَوْ ... أنَّ القَياصِرَ وَالْمُلوكَ ظِماءُ
وَإذا أجَرْتَ فأنتَ بَيْتُ اللَّه، لَمْ ... يَدْخُلْ عَليهِ المُستجيرَ عِداءُ
وإذا مَلَكْتَ النَّفسَ قُمْتَ بِبِرِّها ... وَلَوَ انَّ ما مَلَكَتْ يَداكَ الشَّاءُ
وَإذا بَنَيْتَ فخيرُ زَوْجٍ عِشْرَةً ... وَإذا ابْتَنَيْتَ فَدونَكَ الآباءُ[6]

---

(١) أياء الشمس وآياتها: نورها وحسنها. والصّديق: يوسف عليه السلام.

(٢) النوء: المطر.

(٣) الضغن: الحقد.

(٤) التحلم: تكلف الحلم.

(٥) تعرو: تصيب، والندِيّ: النادي.

(٦) بنى بأهله: زُفَّ إليهم. وابتنى: صار له بنون.

وَإذا صَحبْتَ رَأى الْوَفاءَ مُجَسَّمًا ... في بُرْدِكَ الأصْحابُ وَالْخُلَطاءُ
وَإذا أخَذْتَ العَهْدَ، أوْ أعْطَيْتَه ... فَجَميعُ عَهْدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفَاءُ
وَإذا مَشَيْتَ إلى العدا فَغَضَنْفَرٌ ... وَإذا جَرَيْتَ فإنَّكَ النَّكْباءُ(١)
وَتَمُدُّ حِلْمَكَ للسَّفيهِ مُدارِيًا ... حتَّى يَضيقَ بِعرْضِكَ السُّفَهاءُ
في كُلِّ نَفْسٍ مِنْ سُطاكَ مَهابَةٌ ... وَلِكُلِّ نَفْسٍ في نَداكَ رَجاءُ(٢)
فَالرَّأيُ لم يُنْضَ الْمُهَنَّدُ دونَهُ ... كالسَّيْفِ لَمْ تُضْرَبْ بِهِ الآراءُ(٣)

* * *

يأيُّها الأمِّيُّ، حَسْبُكَ رُتْبَةً ... في العِلْمِ أنْ دانَتْ بِكَ العُلَماءُ(٤)
الذِّكْرُ آيةُ ربِّكَ الْكُبْرى الَّتي ... فيهَا لِباغي الْمُعجِزاتِ غَناءُ(٥)
صَدْرُ البَيانِ لَهُ إذا الْتَقَت اللُّغَى ... وَتَقَدَّمَ الْبُلغاءُ وَالفُصَحاءُ(٦)
نُسِخَتْ بِهِ التَّوْراةُ وَهْيَ وَضيئَةٌ ... وَتَخَلَّفَ الإنجيلُ وَهْوَ ذَكاءُ(٧)
لما تَمشَّى في «الحجاز» حَكيمُهُ ... فُضَّتْ «عُكاظُ» بِهِ، وَقامَ حِراءُ(٨)

---

(١) غضنفر: أسد. والنكباء: ريح بين ريحين.

(٢) سُطًا: جمع سطوة.

(٣) نضا السيف من غمده: سله. والمهند: السيف المطبوع من حديد.

(٤) دان به: اتخذه دينا.

(٥) الباغي: الطالب. والغناء: ما يغني.

(٦) اللغى: جمع لغة.

(٧) ذكاء: من أسماء الشمس.

(٨) عكاظ: سوق كانت تقام في الجاهلية بين نخلة والطائف، هلال ذي القعدة وتستمر عشرين يومًا أو شهرًا، تجتمع فيها قبائل العرب فيتفاخرون ويتناشدون الشعر ويتبايعون. =

أَزْرى بِمَنْطقِ أَهْلِه وَبَيانِهِمْ وَحْيٌ يُقَصِّرُ دُونَهُ البُلَغاءُ[(١)]
حَسَدوا، فَقالوا: شاعِرٌ، أَوْ ساحِرٌ وَمِنَ الحَسودِ يَكونُ الاسْتِهْزاءُ
قَدْ نالَ «بِالهادي» الكريم وَ«بِالهُدى» ما لَمْ تَنَلْ مِنْ سُؤْدُدٍ سَيْناءُ[(٢)]
أَمْسى كأَنَّكَ مِنْ جَلالِكَ أُمَّةٌ وَكأَنَّهُ مِنْ أُنْسِهِ بَيْداءُ
يوحَى إِلَيْكَ الفَوْزُ في ظُلُماتِهِ مُتَتابِعًا تُجْلى بِهِ الظَّلْماءُ
دِينٌ يُشَيَّدُ آيَةً في آيَةٍ لَبِناتُهُ السُّوراتُ وَالأَضْواءُ[(٣)]
الْحقُّ فيهِ هُوَ الأَساسُ، وَكيفَ لا وَاللّهُ جَلَّ جَلالُهُ البَنَّاءُ؟
أَمَّا حَدِيثُكَ في العُقولِ فَمَشْرَعٌ وَالعِلْمُ والحِكَمُ الغوالي الْماءُ[(٤)]
هُوَ صِبغَةُ الفُرْقانِ، نَفْحَةُ قُدْسِهِ وَالسِّينُ مِنْ سُوراتِهِ وَالرَّاءُ[(٥)]
جَرَتِ الْفَصاحَةُ مِنْ يَنابيعِ النُّهَى مِن دَوْحِهِ، وتفجَّرَ الإِنْشاءُ[(٦)]
في بَحْرِهِ لِلسَّابِحِينَ بِهِ عَلى أَدَبِ الْحَياةِ وَعِلْمِها إِرْساءُ

= وقد أبطلها الإسلام. وعكاظ تذكر وتؤنث. حراء: الغار الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ ونزل عليه فيه الوحي.

(١) أزرىٰ به: عابه.

(٢) الهادي: النبي ﷺ والهدىٰ: القرآن. والشرف الذي حظيت به سيناء هو أنها كانت موطن تكليم اللّه موسىٰ عليه السلام.

(٣) السورات: جمع سورة، وهي القطعة المستقلة من القرآن الكريم.

(٤) مشرع: مورد.

(٥) هو حديث الرسول ﷺ، مصبوغ بصبغة القرآن الكريم. فالصبغة هنا بمعنىٰ الصباغ. والسين والراء إشارة إلىٰ ما فيه من كشف لبعض أسرار القرآن.

(٦) النُّهىٰ: جمع نُهْية وهي العقل. الدوح: الشجر العظيم المتسع.

أَتَتِ الدُّهُورُ عَلى سُلافَتِهِ، وَلَمْ ... تَفْنَ السُّلافُ، وَلا سَلا النُّدَماءُ(١)

* * *

بِكَ يا ابْنَ عَبْدِاللَّه قامَتْ سَمْحَةٌ ... بِالحَقِّ مِنْ مِلَلِ الهُدَى غَرَّاءُ(٢)

بُنِيَتْ عَلى التَّوْحيدِ وَهْيَ حقيقةٌ ... نادَى بِهَا سُقراطُ وَالقُدَماءُ(٣)

وجَدَ الزُّعافَ مِنَ السُّمومِ لأجْلِها ... كالشَّهْدِ، ثُمَّ تتابَعَ الشُّهَداءُ(٤)

وَمَشى عَلى وَجْهِ الزَّمانِ بِنورِها ... كُهَّانُ وادِي النِّيلِ وَالعُرَفاءُ(٥)

إيزيسُ ذاتُ المُلْكِ حينَ تَوَحَّدَتْ ... أخذَتْ قِوامَ أمورِها الأشْياءُ(٦)

لما دَعَوْتَ النَّاسَ لَبَّى عاقِلٌ ... وأصمَّ مِنكَ الجاهلينَ نداءُ(٧)

أَبَوُا الخُروجَ إليْكَ مِنْ أوْهامِهِمْ ... وَالنَّاسُ في أوْهامِهِمْ سُجَناء

ومِنَ العُقولِ جَداوِلٌ وَجَلامِدٌ ... ومِنَ النُّفوسِ حَرائِرٌ وإماءُ(٨)

داءُ الجَماعةِ مِنْ أرسطاليسَ لمْ ... يُوصَفْ لهُ حَتَّى أتَيْتَ دَواءُ

(١) السلاف والسلافة: أفضل الخمر.

(٢) السمحة: الملَّة الميسَّرة.

(٣) يشير إلى أن التوحيد فطرة فطر اللَّه الناس عليها، ووصل إليها العقل السليم بدون وحي.

(٤) يشير إلى تجرع سقراط السم في سبيل مبدئه.

(٥) العراف: المنجِّم، والجمع عرفاء.

(٦) إيزيس: من آلهة المصريين القدماء. وقوام الشيء: نظامه وعماده.

(٧) أي أن نداء التوحيد أصاب الجاهلين بالصمَّم.

(٨) الجدول: النهر الصغير. والجلمود: الصخر.

فَرَسَمْتَ بَعْدَكَ لِلْعِبادِ حُكومةً لا سُوقةٌ فيها ولا أمَراءُ
اللَّه فَوْقَ الخَلْقِ فيهَا وَحْدَهُ وَالنّاس تَحتَ لِوائِها أكْفاءُ
وَالدِّينُ يُسْرٌ، والخِلافةُ بَيْعَةٌ وَالأمْرُ شُورَى، والحُقوقُ قَضاءُ
داوَيْتَ مُتَّئدًا، وَدَاوَوْا طَفْرَةً وأخفُّ مِنْ بَعْضِ الدَّواء الدَّاءُ[1]
الحَرْبُ في حَقٍّ لَدَيْكَ شَريعَةٌ ومِنَ السُّمُومِ النَّاقِعـات دَواءُ[2]
وَالْبِرُّ عِنْدَكَ ذِمَّةٌ، وَفَرِيضَةٌ لا مِنَّةٌ مَمْنُونَةٌ وَجَبـاءُ[3]
جاءَتْ فَوَحَّدَتِ الزَّكاةُ سَبيلَهُ حَتَّى الْتَقَى الكُرَماءُ وَالبُخلاءُ
أنْصَفْتَ أهْلَ الفَقْرِ مِنْ أهْلِ الغِنَى فالكُلُّ في حَقِّ الحَيـاة سَوَاءُ
فَلَوَ إنَّ إنسانًا تَخَيَّـرَ مِلَّـةً ما اخْتارَ إلا دِينَكَ الفُقَـرَاءُ

***

يأيُّها المُسْـرَى بِـهِ شَـرَفًا إلى ما لا تَنـالُ الشَّمْسُ والجَوْزاءُ[4]
يَتَساءَلونَ ـ وَأنْتَ أطْهَرُ هَيْكَلٍ ـ: بالرُّوحِ أمْ بالهَيْكَلِ الإسْراءُ؟[5]
بِهِما سَمَوْتَ مُطَهَّرَيْنِ، كِلاهُما نُـورٌ، وَرَيْحانِيَّـةٌ، وَبَهَـاءُ

---

(١) متئدًا: متأنيا. وطفر: وثب من أسفل إلى أعلى.

(٢) الناقعات: القاتلات.

(٣) البر: الإحسان. وذمة: عهد، والمنة: العطية، والممنونة: المتبوعة بالمن. والجبَاء: الجمع.

(٤) الإسراء: السير ليلا. والجوزاء: بُرج في السماء.

(٥) الهيكل: الجسم والصورة والشخص.

فَضْلٌ عَلَيْكَ لذي الجَلالِ وَمِنَّةٌ وَاللَّهُ يَفْعَلُ ما يَرَى وَيَشاءُ
تَغْشى الغُيوبَ مِنَ الْعَوالِمِ، كلَّما طُوِيَت سَمَاءٌ قُلِّدَتْكَ سماءُ[1]
في كُلِّ مِنْطَقَةٍ حَواشي نورِها نونٌ، وأنتَ النُّقْطَةُ الزَّهْـــراءُ
أنْتَ الجمَالُ بِها، وَأنْتَ المُجْتَلى وَالْكَفُّ، والْمِرآةُ، وَالحَسْنـــاءُ
اللَّه هَيَّأ مِنْ حَظيرةِ قُدْسِه نُزُلاً لِذاتِكَ لَمْ يَجُزْهُ عَـــلاءُ
العَرْشُ تَحْتَكَ سُدَّةً وقوائمًا ومَناكِبُ الرُّوحِ الأمينِ وِطـــاءُ
والرُّسْلُ دُونَ العَرْشِ لم يُؤذَنْ لَهُمْ حاشـــا لِغَيْرِكَ مَوْعِدٌ وَلِقـــاءُ

* * *

الخيلُ تأبَى غَيْرَ «أحمدَ» حامِيًا وَبِها إذا ذُكِرَ اسْمُهُ خُيَـــلاءُ
شَيْخُ الفَوارسِ يَعْلَمونَ مكانَهُ إنْ هَيَّجَتْ آسادَها الهَيْجـــاءُ[2]
وإِذَا تَصدَّى لِلظُّبى فَمُهَنَّدٌ أوْ لِلرِّماحِ فَصَعْدَةٌ سَمْـــراءُ[3]
وَإِذَا رَمى عَنْ قَوْسِه فَيَمِينُهُ قَدَرٌ، وَمـــا تَرمِي اليَمِينُ قَـضـــاءُ
مِنْ كُلِّ داعي الحَقِّ هِمَّةُ سَيْفِه فَلِسَيْفِهِ فِي الرَّاسِياتِ مَضاءُ[4]
ساقِي الجَريحِ ومُطعِمُ الأَسْرَى، وَمَنْ أَمِنَت سَنابِكَ خَيْلِهِ الأشْلاءُ[5]

---

(١) غشي المكان يغشاه: أتاه.

(٢) الهَيْجاء: الحرب. وآسادها: فرسانها.

(٣) الظبى: جمع ظُبة، وهي حد السيف. والصَّعدة: القناة المستوية.

(٤) الراسيات: الجبال. ومضى السيف مضاء: قطع.

(٥) الأشلاء: جمع شلو، وهي أعضاء الإنسان بعد التفرق، أي: أنه لا يمثل بالقتلى.

إنَّ الشَّجاعَةَ في الرِّجالِ غلاظــةٌ ... ما لَمْ تَزِنْها رأفَةٌ وَسَــخاءُ[1]
والحَرْبُ مِنْ شرَفِ الشُّعوبِ فإن بَغَوْا ... فَالَمجدُ مما يَدَّعُــونَ بَــرَاءُ
وَالْحَرْبُ يَبْعَثُها القَوِيُّ تَجَبُّرًا ... وينوءُ تَحتَ بَلائِهــا الضُّعَفاءُ
كَمْ مِن غَزاةٍ للرَّسولِ كَريمَــة ... فيهَا رِضًى لِلْحَــقِّ أوْ إعْلاءُ
كانَتْ لجنْدِ اللَّهِ فيهَا شَــدَّةٌ ... في إثْرِهــا لِلْعالَمينَ رَخاءُ
ضربُوا الضَّلالَةَ ضَرْبَةً ذَهبَتْ بِها ... فَعلَى الجَهالةِ وَالضَّلالِ عفَاءُ
دَعَموا علَى الْحَرْبِ السَّلامَ، وَطالما ... حَقَنَتْ دِمــاءً في الزَّمــانِ دِماءُ

* * *

الْحَقُّ عِرْضُ اللَّهِ، كُلُّ أبيَّةٍ ... بَيْنَ النُّفوسِ حِمًى لَهُ وَوِقاءُ
هَلْ كانَ حَوْلَ محمَّدٍ مِنْ قَوْمِه ... إلاَّ صَبِيٌّ واحدٌ ونِساءُ؟
فَدَعا فلَبَّى في القَبائِلِ عُصْبَةٌ ... مُسْتَضْعَفون، قَلائلٌ، أنْضاءُ[2]
رَدُّوا بِبَأسِ العَزمِ عَنْهُ مِنَ الأذى ... ما لا تَرُدُّ الصَّخْرَةُ الصَّمَّاءُ
وَالحَقُّ وَالإيمانُ إنْ صُبَّا علَى ... بَرَدٍ فَفيهِ كَتيبةٌ خَرْساءُ[3]
نَسَفوا بِناءَ الشِّرْكِ، فَهوَ خَرائِبٌ ... وَاسْتَأصَلوا الأصنْام، فَهْيَ هَباءُ[4]

---

(١) الغلاظة: الفظاظة والقسوة.

(٢) النِّضو: المهزول من الإبل وغيرها.

(٣) البَرَد: ماء الغمام يتجمد في الهواء. والكتيبة الخرساء: التي لا يُسمع فيها صوت.

(٤) الهباء: الغبار.

يَمْشون تُغْضي الأرْضُ مِنْهُمْ هَيْبَةً ... وَبِهِمْ حِيالَ نَعيمِها إغْضاءُ
حَتَّى إذا فُتِحَتْ لَهُمْ أطْرافُها ... لَمْ يُطْغِهِمْ تَرَفٌ وَلا نَعْماءُ

* * *

يا مَنْ لَهُ عِزُّ الشَّفاعَةِ وَحْدَهُ ... وَهُوَ الْمُنَزَّهُ، ما لَهُ شُفَعاءُ
عَرْشُ القِيامَةِ أنْتَ تَحْتَ لِوائِه ... وَالْحَوْضُ أنْتَ حِيالَهُ السَّقّاءُ
تَرْوي وَتَسْقي الصَّالِحينَ ثَوابَهُمْ ... وَالصَّالِحاتُ ذَخائِرٌ وَجَزاءُ
ألِمْثلِ هَذا ذُقْتَ في الدُّنْيا الطَّوى ... وَانْشَقَّ مِن خَلَقٍ عَلَيْكَ رِداءُ؟[1]
لي في مَديحِكَ يا رَسُولُ عَرائِسٌ ... تُيِّمْنَ فيك، وَشاقَهُنَّ جِلاءُ[2]
هُنَّ الحِسانُ، فَإنْ قَبِلْتَ تَكَرُّمًا ... فَمُهورُهُنَّ شَفاعَةٌ حَسْناءُ
أنْتَ الَّذي نَظَمَ الْبَرِيَّةَ دينُهُ ... ماذا يَقولُ وَيَنظِمُ الشُّعَراءُ؟
الْمُصْلِحونَ أصابِعٌ جُمِعَتْ يَدًا ... هِيَ أنْتَ، بَلْ أنْتَ اليَدُ البَيْضاءُ
ما جِئْتُ بابَكَ مادِحًا، بَلْ داعِيًا ... وَمِنَ الْمَديحِ تَضَرُّعٌ وَدُعاءُ
أدْعُوكَ عَنْ قَوْمي الضِّعافِ لأزْمَةٍ ... في مِثْلِها يُلْقَى عَلَيْكَ رَجاءُ
أدَرى رَسُولُ اللَّهِ أنَّ نُفوسَهُمْ ... رَكِبَتْ هَواها، وَالْقُلوبُ هَواءُ؟
مُتَفَكِّكونَ، فَما تَضُمُّ نُفوسَهُمْ ... ثِقَةٌ، وَلا جَمَعَ الْقُلوبَ صَفاءُ

---

(١) الخَلَق: البِلىٰ.

(٢) العرائس: جمع عَروس، يعني القصائد: وتيَّمهن الحب: ذهب بعقلهن. والجلاء: عرض العروس علىٰ زوجها مجلوة. وشاقهن: هاجهن.

رَقَدُوا، وَغَرَّهُمُ نَعيمٌ باطِــــلٌ ... وَنَعيمُ قَوْمٍ في القُيــودِ بَــلاءُ
ظَلَمُوا شَريعَتَكَ الَّتي نِلْنــا بِهـا ... ما لَمْ يَنَلْ في رومةَ الفُقَهــاءُ
مَشَتِ الْحَضارَةُ في سَناها، واهْتَدى ... في الدِّينِ وَالدُّنيا بِها السُّــعَداءُ

***

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّه ما صَحِبَ الدُّجى ... حادٍ، وَحَنَّتْ بِالْفَلا وَجْنَــاءُ[1]
وَاسْتَقْبَلَ الرِّضْوانَ في غُرُفاتِهِــمْ ... بِجِنانِ عَدْنٍ آلُكَ السُّــمَحــاءُ
خَيْرُ الوَسائِلِ، مَنْ يَقَعْ مِنْهُمْ عَلى ... سَبَبٍ إلَيْكَ فَحَسْبِيَ «الزَّهْراءُ»[2، 3]

***

(١) الوجناء: الناقة الشديدة.
(٢) السَّبب: كل شيء يتوصَّل به إلىٰ غيره. والزَّهراء لقب السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ.
(٣) انظر ديوان «الشوقيات» لأحمد شوقي (١٩١-١٩٨).